الحوار

في سبيل خطة موحدة للإعلامية العربية

بقلم : البشير بن سلامة

إن العالم المتقدم يتطور بسرعة فائقة وإن ما يحصل كل يوم فى أمريكا واليابان وعدد من بلدان أوربا لمذهل حقا . وأهم وسيلة تتجه اليها الامم المتقدمة وتعتبرها دعما لقوتها وأساسا لمنعتها هو خزن المعلومات والمعطيات المختلفة لا كما كان الشأن من قبل عن طريق الحفظ أو الكتاب فقط بل بالاستعانة بآلات لها طاقة استيعاب وحفظ ومرونة استعمال لم يكن ليتصورها بشر .

هى الاعلامية وهو علم يتجه أساسا الى معالجة الاعلام آليا بصورة عقلانية نظرا الى أن الاعلام يعتبر ركيزة المعارف والتواصل فى المجال التقنى والاقتصادى والاجتماعى .

فالمجتمع الجديد هو مجتمع الاعلام الذى يتوصل الى جمع كميات مهولة من المعلومات مهما تعدد مصدرها الجغرافى واختلفت قيمتها وهو القادر أيضا على النفاذ اليها لتكون له رؤية شاملة للمشاكل تفضى حتما الى ايجاد الحلول المؤاتية ولا يكون ذلك الا عن طريق الاعلامية المعتمدة على ناظم الآلة (Ordinateur)

وهذه الآلات الى جانب جمعها للعلوم والمعارف يمكن أن يخاطبها الانسان طالبا منها أن تمده بما يريده مما اختزنته مسبقا وفى امكانه أن يعجم صحة ما تمليه عليه . ولقد تعددت هذه الآلات الجديدة وكثرت أسماؤها وتنوع استعمالها وصغر حجمها بحيث أوشكت أن تصبح فى متناول فئات كثيرة من المجتمعات المتقدمة .

ومن هذه الآلات جهاز التل إعلامية (Télématique) وهو عبارة عن آلة تستعمل خصائص التلفزة والتلفون وناظم الآلة . فبامكان الفرد أن يقرأ وهو فى منزله على شاشة صغيرة مستعملا التلفون أوقات إقلاع وسائل السفر من قاطرات وغيرها وبامكانه أن يحجز تذاكر المسرح وأن يعرف رقم تلفون ما وأن يطلب من المغازات ما يريده من البضائع ومن ذلك الناسخ التلفزى (Télécopieur) الذى بامكانه أن يبلغ بسرعة وعلى الشاشة الصغيرة رسالة أو وثيقة بمبالغ لا يفوق الكمالة التلفونية وكذلك الكم (COM) (Computer out put microfilm) وهو تمكين المستعمل لناظم الآلة من فلم صغير أو جذاذة صغيرة . وعلاوة على كل ذلك فان هذه الآلات فى مقدورها أن تمكن الفرد فى منزله من تعلم اللغات والرياضيات والموسيقى وتلهية أطفاله بألعاب بريئة . وأكثر من ذلك فهى ستكون صالحة للخلاقين اذ ستوفر عليهم وسائل تعبيرية أوفر وأدق من دون عناء كبير اللهم الا ما تقتضيه عند الخلاق الاصيل الموهبة الحق من معاناة وصبر وسعة أفق .

فالمجتمع العصرى سيكون كما يؤكده بعض العارفين مجتمع الاعلام الذى « يكون فيه نشاط قطاع الخدمات غالبا على قطاع التصنيع وتكون الامم المتقدمة مكتفية سنة 2000 بـ 3 % فى قطاع الفلاحة و 10 % فى قطاع الصناعة والباقى يستوعبه القطاعان الثالث والرابع . والدليل على ذلك أن الامم التى بصدد اللحاق بالامم المتقدمة لها نسبة مائوية فى الخدمات تفوق نسبة الصناعات » .

ومهما تكن سلامة هذا الاستنتاج ودرجة قوة هذه الامم فان الخط الذى تتوخاه بلدان العالم اليوم يتجه هذا الاتجاه وينحو نحوا فيه « تقسيم جديد للعمل وفيه استنقاص للمعارك الخاسرة التى يقوم بها دعاة الصناعات الثقيلة أو المتطلبة لعدد وافر من العمال . وهلا يتجه المجهود الى تحبيذ هذه التقنيات الجديدة المتطلبة للمادة الشخماء بقسط وافر والمكتفية بشىء قليل من الطاقة»؟

وهل يعين هذا التقدم البلدان المتقدمة أكثر مما يعين البلدان السائرة نحو النمو ؟ هذا مشكل من المشاكل الذى يجب أن تتدبر أمرها فيه الامم الفقيرة ؟ ولكن لا مهرب من تقبل هذه المقتضيات الجديدة التى فرضتها الامم المصنعة التى سبقتنا فى الحضارة المادية واجتازت مراحل من التقدم التقنى لا سبيل الى التغاضى عنها .

وإن هذه البلدان لسائرة قدما نحو تعزيز اقتصادها عن طريق تقنيات الاعلامية معتقدة أن ذلك يوفر لها فى مجال الصناعات أساليب جديدة من حيث

الدراسات وآلية متقدمة فى الانتاج وهو الى جانب ذلك يدعم المزاحمة اقتصاديا ويحدث نشاطات جديدة ومختلفة خلاقة لمواطن الشغل ومقتصدة فى الطاقة . ونتيجة لكل هذا فان جوا من الرفاه وطيبة العيش سيرفرف على المجتمع من جراء « ما تقتضيه هذه التقنيات من لا مركزية فى المسؤوليات » (كذا) .

هذا علاوة على ما ستحدثه هذه التقنيات من ثورة فى الاساليب التعليمية إذ سننتقل من المساواة فى الوسائل لتلقى العلوم والمعارف بوضع نفس الاستاذ ونفس الكتب على ذمة التلميذ الى المساواة فى الحظوظ لان الاستاذ غير قادر على مسايرة كل تلميذ على حسب موهبته بينما يقدر التلميذ الموهوب فى القسم الواحد باستعماله وسائل الاعلامية الجديدة على أن يستوعب أكثر مما يستوعبه التلميذ المتوسط الذكاء .

ولكن رغم إقبال الامم المتقدمة بكل طفرة على تركيز مجتمع الاعلام الجديد فان مشاكل كبيرة أثيرت وشغلت بال الدارسين وعلماء الاجتماع . فالكثير منهم يعتقد أن التل إعلامية هو تقدم فى التكنولوجيا ولكنه لا يتقدم بالانسان ولا يوفر له الازدهار الكامل لان التل إعلامية تقتل التواصل المباشر بين البشر ولأن الذى يحذق استعمال هذا الجهاز ويمعن فيه امعانا لن يقدر بعد ذلك على الاتصال المباشر مع أفراد المجتمع .

هذا اذا أمكن للاغلبية أن تستوعب هذا التقدم ولكن « الخطر الكبير كما أكد ذلك المختار مبو المدير العام لليونسكو يكمن فى أننا لن نكون قادرين على استيعاب التغييرات العلمية والتقنية » فيبقى جزء كبير من المجتمعات على هامش هذا التقدم يجر جرا ولا يقدر على الوقوف فى وجه هذا التحدى التكنولوجى بله التحدى الثقافى وأكثر من ذلك فانه سيصير من حيث لا يشعر عبدا للآلة وأسيرا لها تغير حياته وتستلب منه أعز ما لديه أى شخصيته وثقافته وحتى « إنسانيته » (*) .

(*) هذه المعلومات استقيتها من جرائد ومجلات صادرة باللغة الفرنسية وهى جريدة لوموند بأعدادها المؤرخة فى 13 و 21 و 24 و 25 و 27 سبتمبر 1979 و 30 سبتمبر ـ غرة أكتوبر 1979 ـ وكذلك جريدة لوفيقارو (Le Figaro) فى عدديها الصادرين بتاريخ 28 سبتمبر و 29 سبتمبر 1979 وأخيرا مجلة نوفال أبسرفتور (Nouvel Observateur) بتاريخ الاثنين 24 سبتمبر 1979 .

إن كل الذى ذكرته آنفا مسرحه العالم الغربى بعالميه القديم والجديد أما نحن فى العالم العربى فكيف واجهنا وكيف سنواجه هذه المآتى الجديدة التى ستغير المجتمعات فى المستقبل ؟

فهلا يكون هذا التحدى مؤامرة أخرى من مؤامرات الغرب ضد العالم الثالث لتبقى مجتمعاته مشدودة أو مستعمرة استعمارا جديدا الى الابد ؟ أفلا تعنى سيطرة هذه التقنيات الاستغناء عن الطاقة المتاتية جلها من البلدان العربية والاسلامية والتفصى من اليد العاملة الكثيرة النازحة من العالم الثالث وأكثر من هذا بيع هذه الآلات المعقدة اليها بمبالغ مالية باهضة تحول حصيلة مجهودها الى البلدان المتقدمة ؟

ماذا فعلت المجموعة العربية لرفع هذا التحدى المزدوج التكنولوجى والثقافى ؟

نعم نجد أن كثيرا من الدول العربية تجهزت بآلات الاعلامية وكونت اطارات لا تقل خبرة عن الاطارات الاوربية والامريكية وأصبحت تعتمد فى عدة ميادين على ناظم الآلة وغيره .

نعم أحدثت الدول العربية المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية وسيعلن قريبا عن المناقصة الدولية لاختيار المؤسسة العالمية التى ستقوم بصنع القمر الصناعى العربى للمواصلات عن طريق الفضاء وسيوضع فى مداره آخر سنة 1982 ويبدأ الاشتغال به سنة 1983 وسيكون له تأثير كبير فى تقريب المسافات وتسهيل الاتصالات والبث التلفزيونى (**) .

نعم كونت كثير من البلدان العربية لجانا للاعلامية ولكننا لا ندرى ماذا وصلت اليه من أبحاث وماذا أصدرته من قرارات وكأن الانظمة العربية ضنينة على جماهيرها بالاعلام فى هذا الباب بينما الامر يتعلق بها لانها هى التى ستدعى الى الانتفاع بهذه التقنيات ان عاجلا أو آجلا .

وعلى كل فان الاقطار العربية واجهت هذا التحدى التكنولوجى مشتتة الصفوف غير عابئة بما تقوم به الشركات العالمية من مؤامرات لاستغلال الطاقات العربية وتعميق الفوارق بينها .

(**) جريدة الصباح ــ الخميس 11 اكتوبر 1979 ص. ص. 4 و 5 .

لهذا فانه لا مفر للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من تكوين لجنة من الخبراء تعد خطة لرفع هذا التحدى التكنولوجي والثقافى وتكون هذه الخطة مرحلية ترمى أساسا الى :

ـ ضبط حاجيات البلدان العربية فى هذا الميدان وتخطيط المراحل التى يجب أن تمر بها فى استيعابها لهذه التقنيات وهضمها لهذا التقدم مع التحكم فى المعطيات والمعلومات بحيث تبقى الجماهير محافظة على قيمها غير مهددة بالانغيار والاستلاب .

ـ تكوين الاطار الملائم لهذه الخطة .

ـ التخطيط لبعث شركات عربية لصنع هذه الآلات .

وهكذا نكون قد وفرنا لنخبتنا وليدنا العاملة مواطن شغل فى البلاد العربية وتحكمنا فى مواردنا وسخرنا المعطيات والمعلومات ذات الطابع العلمى الشامل الى مقتضيات حضارتنا ومستوى الثقافة عند جماهيرنا وجنبناها الكسل الحضارى المتمثل خاصة فى كرع نخبتنا مباشرة من معين الحضارة الغربية عن طريق اللغات الحية من دون مرورها باللغة القومية التى هى الدرع الحصين الواقى من كل تفسخ واستلاب .

وإن أملنا لكبير فى أن يتحقق هذا الرجاء ويكون له من الشيوع والذيوع لدى الجماهير العربية ما يجعلها تتبنى ذلك وتتتبع خطوات تنفيذه بكل حماس واعتزاز وتجعله الرهان الحضارى الذى به تتنزه مسيرتنا الحضارية عن الوقوع فيما من شأنه أن يضيع علينا وقتنا الثمين فى التلهى بالهوامش التى لا توفر على الفرد العربى الحرية والكرامة والعدل .

البشير بن سلامة

واجبنا تحقيق مناعتنا الحضارية

بقلم : محمد مزالي

نشرت الجريدة اليومية ـ الشرق الاوسط ـ الصادرة بالعربية فى لندن وجدة بتاريخ الخميس 14 جوان 1979 فى نفس الوقت حديثا صحفيا اجراه مندوبها الخاص بتونس مع السيد محمد مزالى وزير التربية القومية تناول فيه كل المعضلات التعليمة والتربوية والحضارية التى يعيشها عالمنا العربى والتى وجدت الحل او هى فى طريق الحل او مازالت تبحث عنه ، ووصفت الجريدة هذا الحديث بانه صريح وادرجت الاسئلة والاجوبة بعد المقدمة التالية

« محمد مزالى الوزير التونسى للتربية القومية وعضو المكتب السياسى فى حزب الرئيس بورقيبة ورئيس اتحاد الكتاب التونسيين ونائب رئيس اللجنة الاولمبية الدولية قد جمع بين السياسة والادب والرياضة ، وتوفق الى حد كبير فى ان يجعلها تصب كلها فى مسار واحد هو مسار الحضارة العربية الاسلامية ، وان يحولها الى اداة قوية للكفاح من اجل ربط الناشئة التونسية بمبادىء دينها ودفعها للاعتزاز بمقومات ذاتها واقامة الصلة الدائمة بينها وبين حضارتها الاصيلة ،، وتلك مساهمة قوية من تونس فى دفع الحضارة العربية الاسلامية الى الانبعاث المتجدد والاشراقة التى تمكنها من المساهمة الفعلية فى الحضارة العالمية باعتبار ان الحضارة كما يقول السيد محمد مزالى ليست شرقية ولا غربية ولكنها اخذ وعطاء وزحف وامتداد مستمر ،

« ومحمد مزالى هو بطل التعريب فى تونس ، والتعريب هنا معناه تحوير برنامج التعليم منذ المرحلة الاولى على اساس ان تكون اللغة العربية هى اللغة الوحيدة لتدريس المواد ،، كل المواد ولا سيما التاريخ والجغرافيا والفلسفة ،، على ان تدرس اللغة الفرنسية كلغة حية لا كأداة لتدريس المواد ،،

تضاف اليها اللغة الانقليزية ، وهو عنوان تفتح التعليم التونسى على اللغات ، ورفض ذوبانه فى لغة اجنبية ،

مع هذا المفكر العربى والمسؤول الاول عن التربية القومية فى تونس كان لجريدة ـ الشرق الاوسط ـ لقاء وسؤال وجواب »

س : بوصفكم رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ،، ما هى المشاغل التى تشغل الكتاب فى تونس ،

لماذا لا تبلغ اصواتهم الشرق ؟ هل ان اصواتهم ضعيفة ام هناك عوامل اخرى ؟

ج : ان مشاغل الكتاب كثيرة وفى مقدمتها :

1) السعى الى اعلاء منزلة الكتابة والرفع من شان الادب التونسى وجعله يصدر عن صدق هاجس وقوة ايمان ووضوح رؤية واضطلاع بالمسؤولية ،، ولا يمكن ذلك الا بغرس الثقة فى النفوس وتحرير العقول مما ران عليها من شعور بالحقارة ومركبات نقص زرعها المستعمر فى الاذهان زرعا وغذاها بشتى الوسائل والطرق مما نتج عنه اعتقاد الكثيرين ان الفكر التونسى عقيم ، فلا خلق ولا ابداع وانه محكوم على التونسيين بان يبقوا مستهلكين لما يرد عليهم من الشرق بالنسبة لذوى الثقافة العربية وما يرد عليهم من الغرب بالنسبة لذوى الثقافة الغربية ناهيك ان ما كان يصدر من دواوين فى الخمسينات ، لم يكن يلقى رواجا كبيرا وان المجلات والدوريات التى ظهرت ما بين 1880 و 1955 لم تعمر الا قليلا فى حين كانت الكتب والمجلات الواردة من الشرق والغرب تجد لها سوقا نافقة واقبالا عظيما ، ولكن هذا الوضع قد تغير شيئا فشيئا منذ الاستقلال اذ اخذت الثقة ترجع الى النفوس ولقد ساعد على ذلك ديمقراطية التعليم وما قامت به الحكومة فى الحقل الثقافى وما انشانه او حفزت على انشائه من دور نشر وتوزيع وما سنته من قوانين واحدثته من جوائز لتشجيع الكتاب والمؤلفين ودفعهم الى الخلق والابداع ، وانه ليسعدنى بصفة شخصية ان اشير الى ان مجلة الفكر التى كان لى شرف تاسيسها سنة 1955 والتى تصدر بانتظام منذ ذلك التاريخ من دون ان تتخلف ولو مرة واحدة عن موعد صدورها الشهرى قد عملت هى الاخرى على تشجيع الكتاب الناشئين وفسح المجال امامهم وساهمت بقسط كبير فى غرس الثقة فى النفوس ،

غير ان هذا لا يعني اننا تخلصنا تماما من رواسب العقلية القديمة ولا من بعض مرضى النفوس الذين يقاسون آلام التمزق فى متاهات الضياع ،

2) ان اتحاد الكتاب يعمل كغيره من المؤسسات المختصة والى جانب بعض الرواد من كتابنا ومفكرينا ومربينا الافاضل على ان يكون الادب التونسى اوفر حظا فى برامج التعليم مما كان عليه فى كل مراحل التدريس ، واننا لنعتقد ان فى ذلك انصافا للادب التونسى وترويجا له وتشجيعا للمواهب الجديدة وتعريفا بذوى المواهب من الكتاب الاصيلين خاصة ،

3) ان من هم اتحاد الكتاب ايضا الذود عن الكاتب التونسى ماديا وادبيا وصيانة حرمته وحقوقه والدفاع عن حريته ونزعته الى الخلق والابداع ،

4) هو يعمل ـ كذلك ـ على دعم التعاون بينه وبين كافة اتحادات الكتاب في العالم العربى في جميع المجالات ولا سيما فى خدمة الثقافة العربية الاسلامية واحلالها المكانة اللائقة بها وفى خدمة القضايا المصيرية وفى مقدمتها قضية فلسطين المجاهدة ،

5) نحن نسعى الى ربط علاقات صداقة وتعاون مع كافة الدول ولا سيما الصديقة منها والتى نلتقى واياها على صعيد حضارى وثقافى واحد ونطمح الى نقل اثارنا الى لغتها ونقل ما نراه من روائعها الى لغتنا .

أما لماذا لا تبلغ اصوات الكتاب التونسيين المشرق؟ فذلك راجع الى عوامل تاريخية وسياسية شتى ،،، لعل اقساها واشدها الستار الحديدى الذى اقامه المستعمر طيلة عقود طويلة بين جناحى العروبة بغية عزل المغرب العربى عن المشرق العربى سياسيا وثقافيا وبالتالى حضاريا ،، ولئن اخفق المستعمر فيما رمى اليه اذ بقى المغرب العربى موصول الانبساض بالمشرق العربى ،، اى بمنزل الوحى ، وبكل ما يصدر عنه من انتاج فكرى وادبى فاننا نلاحظ بكل مرارة ان اخواننا بالمشرق لم يبذلوا من انفسهم ما يجعلهم يطلعون ـ او يتطلعون ـ الى نتاجنا الفكرى والادبى رغم غزارة هذا الانتاج وروعة الكثير منه ، وانك لو سألت اخواننا عمن يعرفون من الشعراء والادباء التونسيين مثلا لوجدت ان معرفتهم لاتكاد تتجاوز ابا القاسم الشابى الذى كانوا تعرفوا عليه عن طريق مجلة « ابولو » او محمود المسعدى الذى سمعوا به من خلال ما كتبه عنه طه حسين ،،

والغريب ان ظاهرة « الحب » فى اتجاه واحد ،،، شنشنة قديمة كان عبر عنها بكل مرارة ابن بسام حين اقدم على تأليف كتابه الذخيرة حيث قال :

« ،، الا ان اهل هذا الافق ،، ابوا الا متابعة اهل الشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ،، رجوع الحديث الى قتادة ،، حتى لو نعق بتلك الافاق غراب ،، اوطن باقصى الشام والعراق ذباب ،، لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما،، واخبارهم الباهرة واشعارهم السائرة ، مرمى القضية ومناخ الرذية ،، لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولايد ،، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل المشرق بالاحسان ؟ »

وحاشا ان نقول مع ابن بسام فيما يرد علينا من المشرق من كتب ادبية وانتاج فكرى : « اما آن ان يصم صداها ، ويسام سداها ؟ » اذ نحن نعمل بكل ايمان وصدق على القضاء على هذه العزلة وجعل التبادل بيننا حقيقة ملموسة ،، واننا ماضون فى هذه السبيل ومواصلون جهادنا لتحقيق هذه الغـاية لاننـا مؤمنون بعروبتنا ومدركون لتضامننا وواعون بوحدة مصيرنا ،

وعلى كل فانه لابد من ان نعترف بان الوضع الذى اشرنا اليه بدا يتحسن ـ وان ببطء كبير ـ نتيجة اللقاءات المستمرة بين اتحاد الكتاب التـونسيين والاتحادات العربية المماثلة وبفضل الاسابيع الثقافية التونسية فى العواصم العربية التى من اوجه نشاطها عرض الكتاب التونسى والتعريف به وكذلك بفضل نشاط بعض ممثلينا فى الاقطار العربية ومبادرات ثلة من رجال الثقافة والصحافة العرب الذين يدفعهم وعيهم وعروبتهم الاصيلة الى البحث والتنقيب عن المواهب العربية حيثما وجدت وانه لمن الضرورى اولا وآخرا ان تنـكـب وزارات التربية والثقافة فى الاقطار العربية على اقرار اسس التبادل والتعارف الحقيقى بين الادباء العرب حيثما كانوا وعلى تعريف الناشئة العربية بمختلف ملامح الادب العربى المترامى الاطراف ،

س : فى كتابكم « مواقف » قلتم ان وحدتنا القومية تقتضى منا الايمان باننا أمة قبل كل شىء ومعرفة مقوماتنا ثم العمل على تغذية هذه المقومات وجعل الاجيال الصاعدة تتعرف اليها وتتغذى منها وتعتز بها ثم تعمل بدورها الاجيال على اشاعتها وتنميتها وتبلغ الامانة الى الاجيال التى تاتى بعدها ،،، فهل تعتقدون ان تونس تكون بشعبها الصغير المتفاعـل بحكم مـوقعه الجغرافى وتاريخه ولغته مع الشعوب العربية الاخرى ،، امة براسها ؟

ج : ان الاجابة عن هذا السؤال يقتضى التذكير بظروف تاريخية معينة ،، لقد ابتليت تونس بضرب من الاستعمار بغيض يختلف كل الاختلاف عن الاستعمار الذى ابتلى به الشرق العربى ففى حين كان الاستعمار الفرنسى استيطانيا يرمى الى مسخ البلاد والقضاء على مقوماتها الثقافية والحضارية والروحية وطمس هويتها وجعلها مقاطعة فرنسية روحا ولغة وثقافة ومنزعا بل كان يقول : باننا نفاية من أفراد وكان اقطابه يدعون ان الفتح الاسلامى فى شمال افريقيا « حدث » فى تاريخه يجب وضعه بين قوسين وطيه طيا ،، وللتدليل على ذلك كان يشجع اللهجات ويتاول على التاريخ ويشكك الناس فى كيانهم ويتقدم اليهم بثقافته وبهرج حضارته واغراء امكانياته العصرية « والفعالة » كالمنقذ من الضلال ،، وامام هذه الموجة من التضليل فى النفوس كنا نصدع باننا امة متميزة لنا من المقومات ما يؤيد قولنا ويدحض زعم اعدائنا ،، فديننا واحد ولغتنا واحدة ،، وتاريخنا واحد ،، ومسيرتنا طيلة قرون واحدة ،، ونضالنا من اجل الحياة واحد ،، وعلى هذا الاساس كتب المرحوم الزعيم على البلهوان كتابه « نحن أمة » فى فترة حالكة وصعبة من نضالنا ضد الاستعمار الغاشم ،،

وما قصدنا قط ولادار يوما بخلدنا اننا امة براسها ،، بل كنا دوما نعتقد باننا جزء من الامة العربية ،، بل لقد كنا واعين تمام الوعى ونحن نجابه المستعمر بكوننا امة ، اننا كنا كاهل البلاغة نطلق الكل ونريد الجزء والعكس بالعكس ،،

ان ايماننا العميق بالامة العربية وانتسابنا اليها هو الذى كان يدفعنا الى الترنم فى نوادى الحزب الحر الدستورى وفى مخيمات الكشافة التونسية باناشيد العروبة التى الفها ولحنها تونسيون وهذه عينة منها وهى من نظم الشاعر الطاهر القصار وتلحين الاستاذ صالح المهدى ،

يا عرب يا عرب
يا كرام النسب

انتم للغلب
والحجا والادب

يا عرب
انتم للندى

انـتـم للفـــدا

يومكم في العدا

قد غـدا خالـدا

يا عرب الخ ،،

وان انس فلن انسى يوم غادرنا مدارسنا رغم الحراسة الاستعمارية المشددة في الواحد والعشرين من مارس 1947 ـ لمشاركة الشعب التونسي احتفالـه بالذكرى الثانية لتاسيس الجامعة العربية وذلك في الملعب البلدي حيث رفعت اعلام كافة الدول العربية والقيت القصائد والخطب وما زال طالع قصيد المرحوم مصطفى خريف يرن في اذني :

عيد العروبة عد فدتك دمانا

واقبل تحيتنا ومحض هوانا

ولقد كان نالنا من اجل ذلك ما نالنا من العقوبات المدرسية وغيرها ،

ولم تكن تلك المناسبة الوحيدة التي احتفلنا فيها بالجامعة العـربية فلقـد نظمنا سنة 1948 مهرجانا بقاعة « النورماندي » بتونس شارك فيه نخبة مـن التونسيين امثال المرحوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور والمرحوم الصحبي فرحات والمرحوم الشاعر الشاذلي خزنة دار الذي القى قصيدة رائعة مازلت اذكر طالعها :

عريق في العروبة حنـفـي

يناضل عن حقوقه في البلاد

وكذلك ما زلت اذكر بعض ابيات قصيد الشاعر المرحوم مصطفى خريف اذ يقول :

لا تلمني ان نبـذت الادبـا

وتقلـدت حسـامـا اشطبـا

واعتزلت الذكر والذكرى الى

ذكـر تنفـي شبـاه الريبـا

ابهذا العيد ،، يا رمز الوفاء

يا سراجا في الدنى يا كوكبا

يا نهارا ، فاخرت ساعاتــه
بجليل الامر، مرحى، مرحبا
انت فتح، انت نصر، انت من
دوحة الرضوان غصن شربا
عد لنا يا عيد عودا احمـدا
فزت يا عيــد ونلت الاربـا
ايهذا العيد ، بوركت فخـذ
قالة من شعب خضراء الربى
خذ من الريف،ومن فاس،وخذ
من تلمسان ، وعم المغربـا
خـذ الى المشرق آيات الولا
خذ الى العــرب سلاما طيبا

وهل لى ان انسى اننا بينما كنا نحتج ـ اساتذة وتلاميذ ـ على ما دعا اليه الدكتور عبد العزيز فهمى باشا احد اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية من استعاضة عن الحروف العربية بالحروف اللاتينية ونقرأ ما رد به الاستاذ العابد مزالى والاستاذ محمود المسعدى على هذه الدعوة فى العدد 25 من مجلة المباحث بتاريخ افريل 1946 ـ جمادى الاولى 1365 ـ كـان اذذاك الـرئيس الحبيـب بورقيبة ـ وهو لاجىء فى القاهرة ـ يحتج هو الاخر لدى الدكتور طه حسين وزير التربية بمصر على استعمال كتب التاريخ والجغرافيا التى كانت مقررة رسميا فى المدارس المصرية عبارة شمال افريقيا الفرنسية « عند الحديث عن اقطار المغرب العربى الكبير » هذا بالاضافة الى ما بذله الرئيس بورقيبة من جهود مضنية فى ذلك الحين لاقناع عزام باشا وهو اول امين عام للجامعة العربية بضرورة الموافقة على ترسيم القضية التونسية مجرد ترسيم ان لزم الامر ! فى جدول اعمال مجلس الجامعة !

ورغم ما كنا نشعر به من خيبة امل ومن مرارة من جراء الصدمات المتكررة التى كنا نلقاها فاننا لم نتنكر قط لامتنا ولم يداخلنا الشك ابدا فى انتسابنا الحميم والمصيرى للامة العربية الاسلامية ،،

الا ان كل هذا لا يتنافى واعتقادنا ان لكل جزء من الوطن العربي الكبير مميزاته وخاصياته شانه في ذلك شان الاسرة الواحدة التي يتميز افرادها بعضهم عن بعض ،، ومن ثم فان الاديب الحق في نظرنا هو الذي يتفاعل ومحيطه تأثرا تأثيرا ويستلهمه استلهاما ، وبذلك نتحصل على « سنفونية » رائعة تنطلق من روافد متعددة ولكنها تلتقي في مصب واحد هو مصب الحضارة العربية الاسلامية ،

س : كيف ترون المقتضيات الحقيقية للحضارة ؟

ج : سؤال يقتضي قبل كل شيء الوقوف على مدلول كلمة حضارة ،، ولو عدنا الى كتب اللغة لوجدنا ان : « الحضر والحضرة والحاضر والحضارة والحاضرة والحضري من المدن والقرى والريف : ضد البدو والبادي والبداوة والبدوي والبادية ، فالحضارة ضد البداوة ، هي الاقامة في الحضر بل هي اخص من ذلك : الطباع المكتسبة من المعيشة في الحضر وقد اطلق مجمع مصر اسم الحضارة على ما يسمى بالفرنسية Civilisation واسم التحضر والتمدن على ما يسمى بالانقليزية Urbanisation

وعلى هذا الاساس يمكن ان نقول : إن الحضارة هي سلوك الانسان ونظرته للحياة وتكيفه بها وفلسفته في الوجود وما يكتسبه ليتلاءم مع عصره ويندمج فيه وهي تتصل باحوال معيشته وثقافته واحوال مسكنه وعادات مجتمعه وتعامله مع الناس واختيار مسالكه في هذا الكون ،،

ومن ثم فان المقومات الحقيقية للحضارة هي التي تقوم على اجلاء الذات والتأليف بين عناصرها في تناسق وانسجام من لغة ودين وفلسفة وجودية وموقف تجاه الاحداث وهي بالتالي نتاج الفكر الخلاق وعصارة ما يفرزه العلم والتكنولوجية للرفع من شان الانسان والسمو به الى مدارج الادراك والعرفان،، فالحضارة ليست اذن مقصورة على قوم دون قوم وهي من هذه الناحية لا شرقية ولا غربية لانها في جوهرها أخذ وعطاء وزحف وامتداد ، وتحول مستمر واشراق ، ولذلك لا يمكن ان تسلط تسليطا او ان تفرض فرضا ،، بل لا يمكن تقبلها الا عن طريق الاستيعاب والهضم ، وهل فعل العرب غير ذلك حينما اقبلوا على فلسفة اليونان وعلومهم وآداب الفرس وعاداتهم فهضموها وغذوها ونموها وافرزوها في اجمل صورة واشرق بيان ؟

س : ما هي في نظركم اهم العوائق المعرقلة لنهضة العالم العربي ومشاركته الفعلية في صنع الحضارة ؟

ج : ان العوائق في ذلك كثيرة لعل اهمها :

ـ انتشار الامية في الامة العربية

ـ الفكر المتحجر الذي هو وليد تعليم تلقيني لا يبعث على الخلق والابداع ،

ـ الاستعمار الذي خلق دويلات متعددة ومزق اوصال العرب شر ممزق

ـ تكوين قادتنا ومفكرينا انماطا من التكوين لا تلتقي في صعيد واحد ،، وقد قاسينا حتى في تونس من هذه الظاهرة خاصة قبل تأسيس الحزب الدستوري التونسي الجديد سنة 1934 اذ تعددت الحركات الوطنية وتضاربت فيها القيادات التي لم تكن تتجه الى الجماهير قدر ما كانت تتجه الى « النخبة » ! ولم تكن تنزع الى الفعل قدر ما كانت تتشبث بالنية الحسنة

ـ دخولنا دوامة : « الايديولوجيات » المستوردة ،، فمن تقدميين الى رجعيين الخ ،

س : ما هي في رايكم المسارات التي رسمتها الثورة الاسلامية في ايران : والامكانيات التي كشفتها ونقط الضعف التي ابرزتها والابعاد التي قد تؤدي اليها ان كانت لهذه الثورة ابعاد؟

ج : لقد قيل حول هذه الثورة ما قيل ، فمن متحامل عليها مجدف بها ومن متحمس لها مدافع عنها ،، والواقع اننا لا نملك المعطيات الكافية حول هذا الموضوع اذ اكثر معلوماتنا واردة علينا من الوكالات الاجنبية المتحاملة المغرضة في اكثر الاحيان وان ما اطلعت عليه شخصيا في المجلات الفرنسية التي اطالعها أكثر من غيرها وما قراته لبعض رجال الفكر فيها يبعث على الاسى والحزن اذ الاحكام لم تسلم من الهوى بل تجاوزت ثورة ايران احيانا واكتست صبغة الحرب الصليبية اذ كانت هذه الثورة منطلقا من طرف اعداء الاسلام للتهجم عليه واظهاره في مظهر مشوه بعيد عن الحقيقة ورغم ذلك فانه لا مندوحة من الاصداع بان هذه الثورة قلبت كل الموازين في المنطقة فهي ثورة لا كالثورات

الاخرى فلا هى ثورة عسكرية ولا هى انتفاضة عابرة بل هى ثورة شعبية انطلقت من اعماق الشعب كرد فعل على الاضطهاد الذى سلطه الشاه والمحظوظون من بطانته عليه ولا سيما ذلك الاضطهاد الدينى الذى استهدف المعتصمين بدينهم والمعتزين بالانتساب اليه ،، وتجاوز الحدود فبخس رجال الدين حقهم واعتدى على اقدس مقوماتهم بالتنكر للحضارة العربية الاسلامية وتشويهها والتاول عليها ولعل من مظاهر ذلك التذكير « بقورش » Cyrus والتاريخ به عوضا عن السنة الهجرية وتشجيع الشاه «المزدكية» و « المانوية» و « الزرادشتية » واذكاؤه العصبية الفارسية ووصف الفتح العربى الاسلامى بالزحف الاستعمارى مما جعل الملايين من الايرانيين يعتقدون ان الشاه قد باع روح الشعب : « واعتدى بالفاحشة » على روح الامة الايرانية ، وقد اذكى هذا الاحساس شعور الشيعة بانهم كانوا منذ ان نال عليا وذويه ما نالهم ، من المعذبين فى الارض ، وانهم ينتظرون منذ قرون نهاية العذاب وتجاوز الحرمان فكأن هذه الثورة نضجت فى سويداء قلوب الناس واشتعلت بين ضلوعهم وانتظرت فى صمت رهيب ان تنتقم لنفسها وتسترجع حقها السليب وكرامتها فى الحياة وتثبت ان الخروج من التخلف والانحطاط لا يكون بتقمص شخصية الغير والذوبان فيه او باستعارة انماط غربية غريبة عنه وان التعاون مع الغرب والاقتباس منه لا يعنى الانبطاح امامه وتمكينه من امتصاص دمائه وثرواته واستغلالها لاغراضه الامبريالية والصهيونية .

ان ثورة الشعب الايرانى من هذه الناحية لا يمكن ان تكون الا ايجابية لانها استرجاع للكيان ونحت للذات من جديد ونحن فى تونس من انصار العدل والتقدم وكرامة البشر وكل عمل يقدم مسيرة البشر نحو مزيد من هذه القيم فهو ايجابى ونحن معه ،، وان ما نلاحظه احيانا من تجاوزات ومغالاة وانخرام امن ان هى الا اشياء لم تخل منها ثورة ولكن املنا هو ان تبقى الثورة فى مسارها الحقيقى الاسمى اى ان تسعى الى تحرير الانسان الايرانى وان تسمو به الى منزلة الخلق والمساهمة فى اثراء الحضارة الاسلامية وتطويرها ،، واعتقادى ان جوهر الاسلام توق ونظرة الى المستقبل وان المناداة بالرجوع الى الاصل لا تعنى الحنين الى السلفية ولا الدعوة الى الرجعية ولا التعلق بالقشور دون اللب ،، الاسلام حركية واجتهاد والمهم هو التعلق بتعاليمه السمحة المبنية على التسامح ونصرة القضايا العادلة ولا نظن أن قادة الثورة الاسلامية فى إيران على غير هذا النهج سائرين ولا بغير هذه المبادىء معتصمين ،،

س : انتقال مقر الجامعة العربية الى تونس،، هل ستكون له انعكاسات على الحياة الثقافية فى تونس ؟

ج : اى نعم ،، ان انتقال مقر الجامعة العربية الى تونس سيمكن اخواننا العرب من الاطلاع عن كثب على حقيقة تونس العربية المسلمة وعلى اعتزازها بحضارتها وثقافتها ولغتها وانتسابها الى الامة العربية وسيزيل الكثير مما علق من أوهام وأكاذيب باذهان العديد من اخواننا الذين كانوا ضحية الابواق المغرضة التى سعت دون جدوى وخاصة فى الستينات الى التشكيك فى عروبتنا واخلاصنا لارومتنا عن جهل او سوء تقدير لمواقفنا ولظروفنا ،

س : التعريب كان هما من همومكم الثقافية،، هل زال هذا الهم بعد ان اصبح التعريب فى تونس امرا بديهيا واخذ طريقه المؤدى الى غاياته المعروفة ؟

ج : لا اظننى فى حاجة الى التذكير بان دستور بلادنا قد نص على ان الجمهورية التونسية لغتها العربية ودينها الاسلام ،، وان اول اصلاح للتعليم شرعنا فيه بعيد الاستقلال قد نص هو ايضا على ان لغة التدريس ينبغى ان تصبح شيئا فشيئا اللغة العربية وفى هذا المجال لا بد من الاشارة الى اختيارات ثقافية جعلتنا نجنح حالما استقلت بلادنا الى تعميم التعليم والعمل على تكوين الاطارات التونسية الكفأة فى أسرع وقت ممكن وهذا اقتضانا مرحلة انتقالية جعلتنا نعتمد فى تدريسنا على اللغة الفرنسية ،، ولطالما قلت ورددت ان التعريب فى حد ذاته فرع مما اسميه بالاصالة التونسية العربية الاسلامية اذ ان غاية التربية الاولى هى المساهمة فى تكوين اجيال تونسية بحق معتزة ومتمسكة بمقوماتها القومية وفى مقدمة تلك المقومات اللغة العربية وان التعريب ليس الا جانبا من جوانب أخرى تندرج جميعها فى تصور غائية التربية فى تونس ولذلك فاننى ما زلت أؤمن بأن أى نظام تربوى ينبغى ان يكون صورة مسبقة لما يتعين ان يكون عليه المجتمع فى بلدنا ،، واعتقادى هو ان مصير تونس هو مصير شعب عربى يمثل جزءا من المجموعة العربية وان التعريب بالنسبة اليه ليس مجرد شعار أو « موضة » عابرة ذلك ان تونس لا يمكن ان تكون لغتها غير اللغة العربية » .

ولا يذهبن فى ظن البعض ان التعريب معناه التنكر للغات الاجنبية بل هو يقتضى فى نظره ان نكون متفتحين على العالم وان نحذق أكثر من لغة حذقا

كاملا نستطيع بواسطتها ان نطلع مباشرة على ما يجد فى البلاد الاخرى وان نتحاور ونتعامل مع شعوبها ،،

فالتعريب اذن بالنسبة الينا ليس انعزالا أو انكماشا أو تقوقعا أو دعوة الى الرجعية بل هو فى جوهره اختيار تقدمى ثورى وهو كما لا يخفى شرط أساسى من شروط « الهوية » القومية والشخصية الوطنية ،، واننا لسائرون فى ذلك ودائبون كما اننا سائرون فى طريقنا الى تعريب الادارة ودواليبها والمحيط الاجتماعى بصفة عامة ،

س : يرى البعض أن تركيزكم على الشخصية التونسية ومميزاتها خلق عقلية جديدة لدى الشباب قوامها الايمان بالاصالة بعد ان كاد التذبذب يسيطر على عقل الناشئة ،، واتجاهها ،، فما هى الاضافة الممكنة وفى اى مجال تكون للقضاء نهائيا على التذبذب وازدواج الشخصية ؟

ج : ان الاصالة فى نظرنا تعنى فيما تعنيه استرجاع الكيان والايمان بمقومات ذاتيتنا والاعتزاز بماضينا والسعى الى نحت ملامح مستقبلنا ،، و « التذبذب » الذى أشرتم اليه فى شىء من المبالغة هو ظاهرة تكاد تمس الناشئة فى جميع بلاد العالم وذلك لتقلص المسافات وسرعة الاعلام وطغيان الوسائل السمعية البصرية ،، وتونس قد كانت دوما ملتقى الحضارات وهمزة الوصل بين الشرق والغرب وأرض الصداقات والتسامح التى تتعايش فيها الجاليات المختلفة هذا فضلا عن الظرف التاريخى الخاص الذى عاشته تونس أيام الاستعمار والذى سمح لجاليات أوربية فرنسية وايطالية واسبانية وغيرها من ان تقيم بتونس وتستقر ، وفضلا عما ينتج عن تطوير السياحة أحيانا من تمازج واختلاط بين الشباب ،

كل هذا له تأثيره لا محالة ولكننا نعتقد أن لاخوف على ناشئتنا من « التذبذب » أو : « ازدواج الشخصية » طالما غذينا فيها الاعتزاز بمقومات ذاتها وربطناها بمبادىء ديننا ووصلنا بينها وبين حضارتنا وهو ما لا نزال نعمل جميعا من أجله ونكافح ،

س : قال الاديب المصرى المعروف يحيى حقى : « ا نالثورة الثقافية القادمة فى الوطن

العربى ستكون من المغرب العربى ،، فهو يعتقد ان دور المشرق فى المجال الثقافى انتهى ، وجاء الآن دور المغرب العربى ،، هل تتفقون مع يحيى حقى فى هذا المجال ؟

ج : لعل الذى حدا بالاديب يحيى حقى الى هذا القول اطلاع المشرق شبه المفاجىء على بعض الانتاج الادبى والفكرى الذى يصدر عن المغرب العربى وموت بعض الوجوه اللامعة من أدباء المشرق كطه حسن وأحمد أمين والعقاد وحسين هيكل وأحمد حسن الزيات وغير هؤلاء ممن لعبوا دورا فى النهضة الادبية المعاصرة ،،

وغاية ما يمكن ان نقوله هو ان لنا احيانا ـ فيما يخص قضايانا المصيرية ـ تمشيا فكريا يخالف ما درج عليه اخواننا فى المشرق ،، وهـذا انما يؤكـد ضرورة التكامل بيننا ،،

وعلى كل فان رأى الاديب يحيى حقى رأى محترم يلزم صـاحبه ولكننـا من ناحيتنا نؤمن بتكامل الامة العربية خلقا وابداعا ومصيرا ،،

س : كتب مؤخرا غـالى شكـرى فى مجلـة « الوطن العربى » الصادرة بـباريس يقـول : « ان التعـريب الـذى تشهـده تونس لا يكفى ليكون عنوان اصالة وعروبة ما لم يكن قائمـا على فكـر تقـدمى ورؤيـة حضـارية محـددة وواضحة ، ما هو ردكم على غالى شكرى ؟

ج : اننا ما كنا ننتظر من السيد غالى شكرى غير الذى قال ،، فمن شـأن السيد غالى ان يغالى فى الحكم وان يهرف مما لا يعرف اذ قـد غشى على عينيـه الهوى فأصبح يرى الاشياء مقنعة ،، لا يستطيع النفـاذ اليهـا الا من زاويـة نظريته الضبابية الماركسية وما تمليه عليه من تعصب وتحجر وقسر والا فما معنى قوله : « ان التعريب الذى تشهده تونس ليس عنوان اصالة وعروبة ما لم يكن قائما على فكر تقدمى ورؤية حضارية محددة وواضحة ؟ » ،،

فما هو الفكر التقدمى الذى يقصده ، والتقدمية انماط واشتات وملل ونحل ومذاهب وفرق ؟ وما هى الرؤية الحضارية المحددة والواضحة التى يشير اليها؟

ان السيد غالي لو مزق سجف الهوى وتخلص من مركباته وتحرر من اغلال « ايديولوجيته » او ايديولوجياته التى تتكيف مع الظرف ،، لثاب الى رشده ورأى ان محتوى التعليم بتونس تقدمى الى اقصى حدود التقدمية وانه يقوم على علاقة جدلية بين الظرف والمظروف ،، بين اللغة والمحتوى بين المنزلة العلمية التى نصبو اليها والانسان الذى نريد ان نغرس فيه مثلنا العليا والقدرة على حسن التمييز وذلك بتحريره من جميع عقده وصقل فكره وتهذيب ذوقه وجعله فى مستوى الشعور بالمسؤولية والاضطلاع بها ،،

ولكن السيد غالى ومن لف لفه من شرذمته لا يبصرون ،، ولا يمكن ان نتتظر منهم ، « شهادة استحسان » ما لم نلتق واياهم على صعيد الماركسية المجحفة ،

س : التكنولوجيا تتطور بسرعة وتظهر اختراعات فى كل يوم ،، والفلسفة لم تعد تستطيع مواكبة هذا التطور مما جعل بعض النقاد يعتبرون ان الفلسفة اصبحت عاجزة عن تفسير الظواهر الحديثة ،، بل هناك من يزعم ان الفلسفة ماتت نهائيا ! هل تعتقدون ان هذه الظاهرة التى هى من مميزات العالم المتقدم يمكن ان تؤثر على بلدان العالم الثالث التواق الى فلسفة تساعده على التحرر والوصول الى ما يطمح اليه ؟

ج : تلك « شنشنة من اخزم » كما يقول المثل العربى اذ كلنا يعلم ان هذا سؤال ما زال يتردد ويتجدد ويطرح نفسه منذ أجيال وأجيال ،، وكلنا يتذكر مواقف : « أوغست كومت » فى القرن التاسع عشر الذى سعى الى نبذ اللاهوت واستبدال الفلسفة بموضوعية المعرفة العلمية مما انجر عنه ايمان – فيه من الغلو ما فيه بالقيمة المطلقة للعلم ،، هذا العلم الذى يطمح الى ان يجعل الانسان سيد نفسه وسيد الكون ،، بلا منازع !!

والواقع ان كل النظريات من « موضوعية » و « ماركسية » و « نيتشية » حينما جهرت «بموت اللاله» في الانسان واعلنت عن نهاية الفلسفة انما كانت ترمى الى ان تصبح لها بديلا وان تدفع بالانسان الى ان يتخذ له نظاما جديدا مبنيا على منهجية علمية مجردة ،،

ولكن رغم المآثر العلمية العديدة والاكتشافات الباهرة الملموسة والتى لا يمكن بحال انكارها فان العلم لم يجد الحلول لكل المعضلات القائمة ، فالبون شاسع والهوة عميقة بين العلم من حيث هو علم والعلم الذى يدعى الانفراد بالحقيقة الكاملة ويغنى عن دروب المعرفة الاخرى ،، ان آفاق العلم قد اتسعت ـ لا محالة ـ وامتدت ولكن هيهات ان يحصل العلم المطلق وهل له ان يحصل فى يوم من الايام ؟ ان العلماء أنفسهم ينكرون بكل شدة ،، ان يوفر العلم الجواب عن المسائل الميتافيزيقية أو الدينية ،، اذ ان العلم لا يملك هذا الجواب ولا يدعى ذلك فى حين يظل الانسان ،، يومه كأمسه ،، متعلقا ببعض التساؤلات الكبرى كعلة الوجود ،، ولغز الموت ومعنى الحرية وابعاد القيم ، هذا من جهة ، اما اذا أردنا أن نتعمق أكثر فانه ينبغى أن نعترف بأن البحث فى أصول العلم وتوضيح حقيقته لا يتم الا بالتأمل الفلسفى ، ومن هنا فان العلم لا ينافس الفلسفة بل يثيرها ،، وهو حين يثيرها فلانه يعتمد عليها لينظر فى أسسه وليوجد سنده ويبرهن على شرعيته ويكمل انغراسه فى الواقع وبتعبير آخر فان الفلسفة تهيئة للعلم وشرط سابق له والا فكيف ينبغى ان نفهم مجهود : « البحث الابستمولوجى » المبذول منذ عقود بصورة تثير الاعجاب هذا المجهود الذى هو بمثابة بحث مطرد من قبل العلم ـ أو باسمه ـ ليضمن لنفسه القيمة أو على الاقل حق الوجود ،،

فليس من خوف اذن على الفلسفة وحتى على الدين ويكفى ان نتذكر ان الاحداث الكبرى التى أثرت من ربع قرن فى العالم الثالث ليست من آثار التقنية والعلم ،، فالمسيرة الكبرى لـ « ماو » واستقلال المغرب العربى وافريقيا والسلم فى الفيتنام وحتى الثورة الاسلامية بايران وهى أقرب الاحداث منا ، كلها كانت فتوحات الانسان الاعزل ضد التقنية وضد القوة وضد العلم فى مظهره المجرد ،،

لقد كان سلاح كل ذلك الايمان والارادة والتوق الى الحرية والى حياة أفضل ،،

فالفلسفة اذن لم تمت حتى فى العالم المتقدم اذ ليست هى نظرية متحجرة بل هى تنزع الى تحرير العقول وصقل مادة التفكير واكسابنا ما نحن فى حاجة اليه من بصر بالاشياء وبماهيتها ومداها ،، وتعيننا بالتالى على تحليل أنفسنا واستقراء ذاتنا وانتهاج مسلكنا فى الوجود ،،

س : بعد التعاون الاقتصادى مع المملكة العربية السعودية ما هى امكانيات التعاون الثقافى معها ولا سيما فى المجالات التربوية والاسلامية وما هى الاضافات الضرورية ؟

ج : مجالات التعاون بيننا وبين المملكة العربية السعودية متعددة لا يمكن حصرها فى ميدان دون آخر ولكنا نكتفى بالاشارة فى اختصار الى بعض أوجه التعاون الذى من شأنه أن يزيد علاقاتنا وثوقا ويولد الاخوة بين بلدينا ففى المجال الثقافى يمكن ان نقيم معارض للكتاب التونسى والسعودى على السواء ومعارض للفنون التشكيلية وان نتبادل الاساتذة والخبرات فى مختلف مجالات البحث العلمى ،، وان ننسق بين مواقفنا واتجاهاتنا فى مجالى الثقافة والتربية ولا سيما فى المحافل الدولية ،، وبكلمة أدق فانه يجب علينا أن نحطم ذلك الطوق الحديدى الذى ضربه الاستعمار على شعبينا ليكون الحضور التونسى فى السعودية والحضور الثقافى السعودى فى تونس دائمين مستمرين مما يقتضى حل بعض المشاكل الجزئية التى لا تقف عندها عزيمة الطرفين ان شاء الله ،،

س : كيف ترون مستقبل التعليم والتربية فى العالم العربى وما هى قواعد تعاون الدول العربية فى هذا القطاع الحيوى البالغ التأثير على المستقبل،، وماذا تقترحون بوصفكم خبير هذا الميدان وصاحب تجارب ثرية ؟

ج : سؤال تطول الاجابة عنه ولكنى سأجنح الى الايجاز والتلميح واكتفى بالاشارة الى الخطوط العريضة المتعلقة بهذا الموضوع دون الدخول فى التفاصيل ولعله من المفيد فى هذا المجال ان انطلق من الاختيارات الاساسية التى تقوم عليها سياستنا التربوية منذ ان استقلت تونس سنة 1956 ،،

لقد ركزنا سياستنا ــ وما زلنا على ما يلى :

ــ تحقيق التنمية فى البلاد عن طريق النهوض بالانسان التونسى ورفع مستواه ،

ــ تحقيق ديمقراطية التعليم وتوسيع نطاقه ،

ـ فتح الفرص المتكافئة للتعلم امام الشباب خصوصا بواسطة المساعدات الاجتماعية .

ـ العمل على دعم الاصالة العربية الاسلامية ودعم القيم الثقافية القومية ،

ـ التفتح على الحضارة العصرية والسعى الى الالتحاق بركبها عن طريق امتلاك العلوم والتكنولوجيا الحديثة ،

ـ اعداد ما تحتاجه البلاد من الاطارات فى مختلف الاختصاصات وفقا لتقديرات المخططات الانمائية المتتالية ،

والحق انى وان كنت لا أرى فائدة فى ذكر النتائج الباهرة التى انتهينا اليها بانتهاجنا هذه السياسة فانى أشير الى ان تمرسنا بالميدان التربوى ومعالجة قضاياه هو الذى حدا بنا فى المؤتمر الرابع لوزراء التربية والتخطيط فى الدول العربية المنعقد فى « أبو ظبى » من 7 الى 18 نوفمبر 1977 لكى ندلى بتصورنا لقواعد تعاون الدول العربية فى قطاع التربية ولقد قلت اذ ذاك : « ان ما يتوفر فى اقطارنا من الطاقات البشرية والامكانات المادية كفيل بأن يمكننا من مواجهة تحديات العصر التى تداهمنا ،، اذ القضية الجوهرية التى يجب ان نضطلع بها لا تنحصر فقط فى تطوير الانظمة التربوية بكل قطر على حدة وانما هى قضية مصيرية يجب ان نضعها فى مستوى المسؤولية التاريخية ذلكان الواجب المؤكد أصبح يتمثل بالنسبة الينا جميعا فى تحقيق المناعة الحضاريةلامتنا وفى العمل على استرجاع مجدنا التليد الذى عم الدنيا فى العصور الذهبية من تاريخنا ،

هذه هى القضية الكبرى التى يجب ان نضطلع بمسؤوليتها وان نعمل مخلصين على ان تتعلق همة اجيالنا الصاعدة بتحقيقها ،، وبهذا الاعتبار فان معالجتها يجب ان تصدر عن ارادة سياسية مشتركة بيننا تهدف الى اقامة خطة تعليمية ومحتويات تربوية تستجيب لجملة من المبادىء الاساسية ، ومن أهمها فى نظرنا :

ـ ان يحصل بيننا اتفاق على استجلاء ملامح الشباب العربى الذى نريد ان نعمل على تنشئته وفقا لقيمنا الحضارية المشتركة ،،

ـ ان نسعى الى تحقيق الاستقلال الذهنى لشبابنا ،، وان نعمل على تغذيته بمحتويات تربوية مبرأة من التلوث العقائدى ،، فيتم بذلك تحرير العقول ويتوفر ضمان السلامة للثقافة الاصيلة ،،

ـ وان نحرص على تحقيق الديمقراطية الشاملة فى التعليم وتمكين شبابنا من حظوظ متعادلة فى الرقى بحيث تنطلق فى حياة شعوبنا حركية اجتماعية واسعة تمكن الطاقات الخلاقة من البروز والاشعاع ،

ـ ومن ذلك فانه لا بد من الحرص الدائم على ضمان الكفاءة العلمية والصناعية المتينة ومن السعى المتواصل لرفع المستوى فى تنشئة الشباب وتأهيل الاطارات والا فانه يخشى عليهم من التعجل والتساهل واللامبالاة فى اعدادهم ان يكونوا بمثابة الاوراق النقدية التى تخرج الى الناس وليس وراءها رصيد فتنهار الانظمة المالية التى يستشرى فيها داء التضخم ،،

ـ ومن تلك المبادىء الاساسية أيضا ان نسعى بجد الى تمكين شبابنا من التضلع فى العلوم واللغات الحية ،، ففى ذلك ضمان مستقبل حياة أمتهم بين أمم العالم وفى ذلك أيضا وفاء للاصالة العربية الاسلامية اذ قد كان العرب أسياد العالم بما وصلوا اليه من التضلع فى العلم والمعرفة ،،

ـ وفى نفس الاتجاه فانه من واجبنا ان نسعى لخلق عقلية الابتكار فى نفوس شبابنا وان نخرج من منزلة المستهلك لكل ما ينتجه ويبتكره غيرنا ولذلك يجب ان يقبل الشباب بأكبر نسبة ممكنة ،، مثلما هو موجود فى عديد من الدول الديمقراطية على العلوم الصناعية والمهارات الصناعية والتكنولوجيا بوجه عام حتى يخرج بأمته من وضعية التبعية وما يحيط بها من المخاطر ،،

ـ كذلك يجب الا ننسى الدور الذى ينبغى ان تلعبه التربية البدنية والرياضية فى تكوين جسم الانسان وتفتح شخصية الفرد ودعم خصاله البدنية والاخلاقية ومن ثم فانه يتعين ان تحتل التربية البدنية والرياضية مكانة لا تقل أهمية على مكانة المواد الاخرى فى برامج التعليم ،،

هذه بعض الخواطر سقتها دون افاضة فى القول وعسى ان نوفق الى ما فيه خير أمتنا العربية الاسلامية وذلك بانكبابنا على شؤوننا المصيرية الجوهرية ونبذ خلافاتنا والابتعاد عن كل ما من شأنه ان يفرق صفوفنا ويمزق وحدتنا ولا أظن ذلك على ذوى العزائم الصادقة من أمتنا العربية بعزيز .

محمد مزالي

هــــو ..!

شعر : الصادق شرف
(أبو وجدان)

المطلق من المحدود لولا الظلام لكان .. ولكان النور اتفه ما يكون حين يثبته ظل الشيء .. ومن الظلال ينطلق في الارتفاع الجدار بلا انقطاع حتى بلوغ الحقيقة توهما !

* * *

① عن الطفل الفارس والحب ..

أنا ما فكّرتُ يوما في سواهُ ..
و هو ما فكّر من منا الالهُ ؟
نسخةٌ منّي أضاعتْ ذاتَها في ذاتها ، فالطفلُ قد صار أباهُ ..
ويدي امتدتْ له تبحثُ عني ، كيفما امتدتْ الى بحثي يداهُ ..
أشرف النورُ على أشباح ظلي ، كيف يبقى بعدُ شيءٌ لا أراه ؟
تشرقُ الارضُ ، وينفيني ترابي أينما أوهمتُ أنّي منتهاهُ ..
ما قبستُ النورَ من إيمانِ أمي ، مثلما يفعلُ بالطفلِ صباهُ ..
ليسَ كالاطفالِ ، هذا الطفلُ أصفى من شعاعٍ ، جلّ منْ كانَ اجتلاهُ.

في ربيع البعثِ ، من خلجةِ حبٍّ ، أطلقَ الفرسانَ جيلامنْ رُؤاهُ
أنا ما سفّهتُ في الفارس عيني ، لكن الفارسُ نورٌ مقلتاهُ ..

كان نورا ، كنتُ عينا ، عبثا أن تُدركَ العينُ من النورِ مداهُ ..

مَنْ يضَيِّعْ بعد هذا الفتح يوما خلفَ عَيْنيْهِ الى أن تفقآه ..
سيقولُ البحرُ عنه : ذاك أعمى ! كانَ أعمى ! عينُه أعمتْ عَصاه !

* * *

② أجدني ذات سهو ..

فانتفي أيتها العينُ ، فإنَّا نَسمعُ الصوتَ نهارا ، وهو أَصْفَى في الدجى مِنْ أَنْ نَراهُ ..

لو رأيناه لصارَ الجفنُ فينا كَفَمٍ قد اخْرَستْه شفتاهُ ..

شفتي قد أخْرستْني ، ولساني خبرٌ لو ضَاعَ مِني ، ضاعَ عني مبتداهُ ..
وضياعُ الشيءِ مِني هو بدءٌ لانغراسي نخلة فرعاً في عمق هواهُ ..

فاذا عيني ، وما تحويه عيني ، حيرةٌ تُثْبِتُ ما تَنْفي الشفاهُ ...

يا شفاهَ الرِّيبِ ، ما رددتِ إلاَّ : لا . لا ! وفي نَفْيكِ يمتدُّ ثباتي في مَدَاهُ
كيف تَنفينَ ؟ ونفيُ النَّفْيِ . قالوا هو إثباتٌ .. واثباتي نَفَاهُ ..

ضَاعَ مِنّي بعضُ شيءٍ ذاتَ سَهْوٍ ، فجأة تَعثُر ساقي فاذا هُو ....
مُدَّ لِي كفيك يا انتَ ، وخُذْهُ . ضاع مِنكَ الأخذ ، إني آخذٌ مِنكَ سِواهُ ..

خُذْهُ مِني ، سوف لن تَستطيعَ ، لكنْ سوف أرميهِ أنا عَرْضَ جداري
فلتقلْ لِي : ما صداهُ ؟

رَنَّ في سمعكَ صوتٌ ، فلْتقُلْ لي يا مَدَارَ الرفضِ : هلْ أنتَ إلهٌ ؟
أَمْ هُوَ الرفضُ الإلهُ ؟

* * *

③ عن الخيط وانتفاء الابرة ..

قد تفلسفتَ كثيرا ، وأخيرا ، انتَ طفلٌ باع في السوق رداهُ ..
واشترى خيطا لِترقيعِ رداهُ ، فاذا الرَّتْقُ هو الخيطُ الذى كان اشتراهُ ..
ثم لما فَطِنَ الأهلُ اليه ، أُرجعَ الطفلُ لارجاع رداءٍ أثبتَ الشاري الذى كان نفاهُ ...

أنتَ مَنْ بَاعَ ، ومَنْ منك اشترى ، بل أنتَ من تبحثُ عنهُ لتراه ..
انتظرْ فالبحرُ قد لجّ رهيبا ، هل يفيضُ البحرُ لولا شاطئَاهُ ؟
هَلْ تقولُ : النهرُ قد فَاضَ ؟ اذا ما اقتحمتْهُ ضَفّتاهُ ..؟؟
هَاكَ غربالا ، وصبَّ الماء فيه ، سوف يبقى فيه ، او تبقى الميـاهُ ..
جفَّ ثوبي ، بعد ما ابْتُلَّ بماءٍ ، تُرجعُ الشمسُ الى الغيم سَمَاهُ ..
إنها الشمس ، وهل تَنْشُرُ نورا في وجود دَامسٍ دُونَ سِواهُ ..؟
مِنّة الخلدِ على الانسانِ شمسٌ ، شعَّ مِنْ عقلِه منها ما اصطفاهُ ...
شِرْعَةُ الخلدِ مساواةٌ ، وعدلٌ ، ونظامٌ تستوي فيه الجباهُ .
لا ترى الانسانَ من وجهه ؟ كلا .! بل ترى قلبَهُ ، كَفَيْهِ ، وَ فَاهُ
بيتُ الاستقبال لبيكَ تنادى . طاف بي في عرفاتٍ ، كَمْ تسامتْ مَرْوَتَاهُ ؟

أَذَّنَ الغُفْرانُ في غرفة روحي ..إنها الروحُ التي قد أرجعتْ لِي الصوت فِي عِزّ صفاهُ ..
إنَّهُ صوتُ وجودى ، هُوَ قَطْعا ، ويقولُ الغيرُ لِي : ذاك صداهُ .
قد تفاهَمْنا .. ولكنْ ما فهِمْنا بعضَ مَنْ نَسْألُ عَنْ بعضه : مَا هُو ؟
كيفَ لا أدرى مجالَ البدءِ فيه ، ثُم أرجو الغوصَ بِي في مُحْتَوَاهُ .؟
بدؤُه يمتدُّ في سَفح جبالٍ من رمادٍ .. سوف يَمشِي من مشَاهُ ...

سوف أمشيه .. لتبقى خطواتي فيه ، إذْ أمحو أنا مني خطاه ...
تاهَ بي البدءُ على خطيَّ نقيضٍ فمتى يُرجعني ذاك المتاهُ ؟!

* * *

④ اني وجهت وجهي للاستحمام ..

منبرُ الغفران فحمٌ واقفٌ ، هذا براقٌ واقفٌ يبكي ، فما سرُّ بكاهُ ؟
أينا لم يبكِ يوما .؟ أينا لم يترك الارضَ التي تبكي وراهُ .؟
أينا لم تزرع الايامُ فيه شوكة ؟ لم يحرث الهمُّ رباهُ ؟
ربَّ دمعٍ كان نورا .. ومسحناه ، فلم نُبقِ الى الإبصار شرْقا مِنْ ضيَاهُ ..

ستعودُ الشمسُ للاشراق حتما ، كلما نمحو مِنَ الليلِ دجاهُ ...
واستحمَّ النورُ في حوضِ وجودي ، وتجلّى لي ، وقد كدتُ أراهُ ...

ظلَّ كالمطلقِ مِنْ مرآةِ ذهني ، عندما لاحقهُ مني انتباهُ ...
يختفي شكلُه لكن هو يبقى حيث اسكنتُه مني كلَّ جزءٍ ، وتجلَّيتُ لنفسي من وراهُ ..

* * *

⑤ عن الشعاع والعرى وأنامنك ..

أشرقَ الجوهرُ ، فالليلُ سلامٌ ، لك أسلمتُ فؤادي يا شعاعا طاردَ الليلَ .. احتواهُ ..
سوفَ لن يسلَمَ من دنياي شيءٌ ، لو تعرّى الجسمُ ، والبردُ اعتراهُ ..
غيرَ ثوب أبيضِ الظّاهرِ ، رُعْبٌ ... وجوازٌ أنتَ تدري يا شعاعي محتواهُ
اينا لن يلبسَ العُريَ قميصا ؟ عندما تخدعُه يوما قُواهُ !

إنه العُري .. ويكسونا ، ومَنْ لمْ يكسُه العُرْيُ سَيَنْسَى — بعد حين — مَنْ كَساه .

إنه العُريُ كباب في جداري ، وانْفِتَاحي وانْغلاقِي مَصْرَعَاهُ .. قد تصارعنا طويلا ، وأخيرا تَنْحَنِي منّا إلى العُرْيِ الجباهُ ..

نحنُ عندَ العُرْيِ شيءٌ ، وهو شيءٌ ، تَستَوِي الاشياءُ لولا الإشتِبَاهُ
ثَغرةُ الأرضِ كأذْنٍ في دماغي ، أرجعتْ لِي الصوتَ في غير صفَاهُ ..
ورجوعُ الصوتِ يبقى ، سوفَ يبقى . عندما الآذانُ تفنى فِي انْتِفاهُ ..
ورجوعُ الصوتِ قطعا ظلّ صوتي ، سوفَ يبقى خالدا في ما احتواهُ !
حَيْرَتي ضَاعتْ على ظلمةِ ذاتي ، حَيْرَتي في الليل بعضٌ من سَنَاهُ .؟
هذه الأرضُ عليها أمْ علينا هِيَ تمشي ؟ عبرَ دَرْبٍ لا نَرَاهُ ..
لو رأيناهُ لَمَا كنا مشَيْنَاهُ عَذَاباتٍ ، وأحزانا حملناه .. فرادى قد تساقطْنا على حَدّيْ خطاهُ !

وتَهرّى الدربُ ، هرّاهُ حذائي .. أينَ مَنْ لا تتَهرّى قدماهُ ! ؟
أينَ مَنْ يَسْتطيعُ أنْ يمشي اذا ما وقفَ الدربُ بنا في مُنتهاهُ .؟
وتوقّفنا .. ودار الدربُ فينا دورة فيها قضَى منّا جميعا ما ابتغاهُ ..
فاذا انتَ الذى منّي انطفاءٌ ، وإذا هذا أنا منكَ اشتعالٌ ، وكلانا واقفٌ من غيره في مُستواهُ ..

نسخة مني أضاعَتْ ذاتَها فِي ذاتِها ، فالطفلُ قد صار أباه !

الصادق شـرف (أبو وجـدان)

نحو سياسة تكامل اقتصادي عربي

بقلم : المنصف وناس

١ ـ كيف يمكن الوصول الى هذا الهدف ؟

إن الذى يعطى بعدا تشابكيا لقضية التكامل الاقتصادى العربى هو نوعية الأطروحات والمواقف التقييمية المتواجدة على الساحة العربية والتى تختلف ما بين إعتبار التكامل الاقتصادى شرطا لزوميا لقيام الوحدة ومدخلا حتميا لها ، وبين اعتباره مرحلة لاحقة تأخذ مجراها الطبيعى بمجرد وضع التأطير القانونى والصياغة الدستورية لمشروع الوحدة .

وهذا الخلاف الستراتيجى نتاج لطبيعة التحليل والنظرة التصورية التى سادت الوطن العربى طوال عشرات السنين وأثرت على ديمومة المشاريع والتجارب الوحدوية .

وأهمية هذا الموضوع تكمن أساسا فى تحديد الارضية المادية والبناء التحتى والارتكاز الصحيح لكل تخطيط مستقبلى هدفه فك إرتباط الوطن العربى بالغرب إعتمادا على القدرات الذاتية فى عملية الصراع الحضارى وإنطلاقا من مراعاة الخصوصيات Spécificités الاجتماعية والانتاجية لكل قطر عربى ،، ومن ثم فان التكامل الاقتصادى مسح شمولى لخامات وإنتاجات الوطن العربى وتقييم علمى لنوعية الاحتياجات التى تفرزها السوق العربية ، ولذلك لم يخطىء الاقتصاديون حين اعتبروا التكامل ضربا من التحرر والخروج من بوتقة التبعية والاحتواء التى تمثل خطرا على الانبعاث الحضارى العربى وتعرقل مسيرة تنامى القوة الذاتية .

فالى وقت قريب كانت الحملات التضليلية التشكيكية تربط تطور العرب ربطا ميكانيكيا بالاخذ بأسباب التكنولوجيا الاوربية وتوريد الصناعة الغربية

باعتبارها الصيغة الأمثل والحل الوحيد لمشاكل التخلف والتأخر القائمة الآن ، مشاسين دور الانسان العربى فى تغيير الواقع لصالحه ، فالتكامل الاقتصادى علاوة على أنه حل لظاهرة التجزئة والتشتت الكيانى عن طريق تجميع الطاقات والامكانيات العربية فى عملية بناء تنبع من المعطيات الاقتصادية والاجتماعية المباشرة ،، فهو كذلك إيمان بالذات ووعى بقدراتها فى مقابل الحرب النفسية التى يشنها لا فقط الأعداء الظاهرون ، بل وحتى الابناء المسرعيون ممن تشبعوا بالثقافة الغربية ، فاصبحوا دعاة تهجين للانسان العربى وتمييع لقضاياه المصيرية مثل الوحدة .

إن ربط قضية التنمية فى الوطن العربى بجلب الصناعة من الخارج هو إنزال خاطىء تضليلى لها ، وتنكر لما تمليه مقتضيات ومتطلبات المجتمعات الغربية مما يؤدى الى إتاحة الفرصة للقوى الامبريالية العالمية للتحكم في العملية الانتاجية عن طريق زجها فى التقسيم العالمى للعمل والاحتكارات الدولية .

ولعل ما تتحدث عنه أجهزة الاعلام الغربى من اهمية الحوار بين الشمال والجنوب dialogue nord sud وانعكاسه على تنمية ـ دول العالم الثالث ـ أكبر على المحاولات العديدة لاضفاء صبغة الشرعية والعقلنة rationalité على الهيمنة الاقتصادية ، وتبريرها تحت شعار مبادلة الخامات والثروات الطبيعية بالتكنولوجيا الغربية .

فالتكامل الاقتصادى العربى باعتباره الرد الفعلى على التغريب والاحتواء لا يخلو من مهمات ثلاث :

I ـ ربط الاحتياجات العربية لا بالعالم الخارجى ، بل بالقدرات العربية الذاتية .

2 ـ الرد على محاولات التشكيك والحرب النفسية .

3 ـ تهيئة البناء المادى لقيام دولة الوحدة .

والحرب النفسية التى تشنها الدول الغربية ضد الدول النامية ممثلة فى التشويه والتعرية لواقعها ، وتبيان مدى فظاعة الفروق الحضارية بينها ، ليست ناتجة عن شفقة الاولى على الاخيرة ، بقدر ما هى إحكام لأصول الحصار الاقتصادى ، وتوسيع لرقعة الاستهلاك السلعى . إنها عملية كسب أسواق جديدة وتهميش marginalisation للمحاولات التنموية فى الوطن العربى من خلال فرض أنماط وممارسات مغتربة Aliéné لا تمليها طبيعة مجتمعاتنا .

وقد كانت الدول الاستعمارية من قبل الامبريالية عملت على غرس العراقيل والحواجز أمام إلتئام أجزاء الجسم الواحد : الوطن العربي .

ولعل غياب ستراتيجية وحدوية لعملية التكامل سهل بروز الاطروحات التغريبية occidentalistes التى لا يكون فيها النفع سوى آحادى الجانب . ورغم إقرارنا الكامل بوجود تفاوت بين دول أكملت مراحل متقدمة فى التصنع والترأسمل ،، ودول لا تزال فيها العلاقات إقطاعية أو شبه إقطاعية ، ولكن ذلك لا يبرر ربط مصيرنا بالغرب ، وبحكم سيطرة الفئات التكنوقراطية على الحكم وتسيير الامور فان عملية التصنع على الطريقة الغربية تبدو الحلم الوحيد الذى يتراءى فى الأفق حلا للمشاكل التى يعانيها الوطن العربى ، فالاولوية عندهم للجانب التقنى Technique الاستيرادى على كل الجوانب الاخرى نفسية وحضارية وتاريخية ، ومنها كان وصفنا سابقا لهذا التقييم بأنه ميكانيكى ، تنتفى منه طموحات الانسان العربى وارادته ، لانه لا يتأتى لاى عاقل سلخ مشكلة خطيرة مثل التكامل الاقتصادى العربى ع ن الحركة التثويرية والتغييرية للعقلية والانسان العربيين فى نطاق طرح أكثر شمولية وهو الثورة الاقتصادية والاجتماعية .

فاذا ما كانت الصيغة العلمية للتكامل الاقتصادى العربى تقتضى انعتاقا من شبكة الاحتكارات الدولية من جهة وارساء الدعائم المجتمع المتحرر من كل أفانين وأشكال التبعية (إقتصادية وإجتماعية) وإفراز الانماط الحياتية البديلة ، فاننا لا نملك سوى تسميتها منطقا واصطلاحا حركة تحرر وطنى بكل ما فى الكلمة من تسييس Politisation وإيحاء إلتزامى . وهذا التصور ينقلنا مباشرة الى مستويين من مستويات عملية التحرر :

الاول : تصعيد العلاقات مع الغرب من مجرد حوار ونقاش حول التبادل البضائعى ونقل التقنية Technique الى نضال من أجل الحفاظ على المصالح ورفض إستلاب الخيرات مما يدعونا الى إعادة النظر فى المعاملات الدولية وفرض البديل المعادل لها .

الثانى : خروج المجتمعات العربية من مرحلة الاسواق الاستهلاكية التى تحكمها الفئات الطفيلية المرتبطة رأسا بمصالح الغرب عن طريق الثروات المحلية واليد العاملة الرخيصة فالتحرر يكون داخليا وخارجيا والا فلا ...

إن أبرز مثال يمكن أن يقدم على حتمية التحرر من التبعية فى كل عملية بناء اقتصادى متوازن ومتناسق harmorieux مثال البرازيل الذى لعب إرتباطه بالسوق الاحتكارية دورا فى تنافر أعضاء الجسم الواحد ، وبروز التشويه

والاختلال الاجتماعيين من خلال إنحسار التنمية وعدم تعميمها والتوزيع العادل لفوائدها . وهكذا لغم مجتمع كامل بالتفاوت الطبقى لمجرد تخطيط تكنوقراطى فاشل ، ولذلك لا بد من مقاومة التنظيرات والمفاهيم الخاطئة والمد الايديولوجى التخريبى المروج للثقافة الهجينة والمعرقل لحركة التحرر الاقتصادى والبناء الذاتى .

والغرب حين أدرك من أين تؤكل الكتف عمد الى حملات التشكيك فى كل ما هو عربى وذاتى ومحاربته سحقا لكل البوادر التحررية من ناحية وترسيخا لقواعد الحرب النفسية التى تقوم على المغالطة والتضليل من ناحية أخرى .

١٢ ـ الدعامات الحقيقية لمشروع التكامل :

وفى ظل غياب ستراتيجية قومية للتنمية ، فان الدول العربية معالجة منها لمشكلة التخلف الاقتصادى تعتمد على التخطيط المرحلى البسيط انطلاقا من إمكانات قطرية ضئيلة ،، الشيء الذى ينعكس على دخل الانسان العربى ، فيظل دائما يتصف بالضعف ، مما يعرقل التخطيط الستراتيجى الشمولى ، وحدوث تغيير جذرى فى الطاقة الانتاجية ، ويحكم على عملية تنمية الانسان والاقتصاد بالشلل لان ضخامة التحديات لا تقابلها منجهة أخرى قدرة قوية ولعل أكبر انعكاس لغياب الستراتيجية انخفاض متوسط الدخل الفردى العربى مقارنة مع مجمل الثروات العربية .

جدول الدخول العربية الفردية (١)

الدولة	السنة	الدخل الفردى بالدولار
العراق	1973	599
سورية	1971	295
الأردن	1970	521
الكويت	1971	3703
السعودية	1970	440
السودان	1970	109
تونس	1971	282

(١) مجلة النفط والتنمية عدد ١١ سنة 1976 مأخوذ عن :
World Bank and IDA, Annual Report 1973

« ولذلك فان متوسط الدخل الفردى العربى سيظل أقل من متوسط الدخل الفردى المتحقق على مستوى العالم عام 1969 والذى سيصل الى نحو 864 » (2)

ولا يمكن الخروج من هذه الوضعية وتطوير الاقتصاديات العربية سوى بتكثيف المجهودات والافادة القومية الوحدوية من الخامات العربية ووضع ستراتيجية تنموية توفيرا لكل الاحتياجات العربية وضمانا لمستقبل أفضل . ففى الوقت الذى تشكو فيه دول عربية من عجز هياكلها الاقتصادية عن مجابهة طموحات التنمية فى بناء قاعدة صناعية وفلاحية متينة لنقص الاستثمارات ورؤوس الاموال الكافية ، فان دولا أخرى بحكم إرتفاع أسعار النفط فى السنوات الاخيرة ومشاركتها الفعلية فى استغلال ثرواتها عن طريق التأميم (العراق ـ ليبيا) او الاسهم (الكويت السعودية) قد وصلت ايراداتها عام 1970 : 4،7 بليون دولار (3) وتشير الدراسات الى أن هذا الدخل سيتضاعف بين سنوات 1976 ـ 1985 الى خمسمائة بليون دولار (4) إن فوائض إيرادات وعوائد النفط المتدفقة على أكثر من خمسة بلدان عربية لم تستثمر فى الوجوه الصحيحة من البناء الداخلى وقطع الطريق على المستثمرين للاسواق العربية عن طريق توفير الحاجيات اذ لا نزال نشهد تناقضا صارخا بين دول غنية بثرواتها ، والدخل الفردى لمواطنيها ، وأخرى تعانى اختناقا اقتصاديا وقصورا فى الموارد ، وانغلاقا للاسواق المحلية والخارجية (تونس : غلق الاسواق الاوربية فى وجه المنتوج النسيجى والفلاحى) .

ولسائل أن يسأل عن الطرق التثميرية والانتفاعية لهذه العوائد الضخمة فى الوقت الذى تتزايد فيه تداينات بعض الاقطار العربية بصورة تبعث على الاندهاش واليأس من كل المشاريع السرابية التى نسمع بها : قرار إنشاء مجلس الوحدة الاقتصادية العربية فى جوان 1957 ، السوق العربية المشتركة فى أكتوبر 1964 ، واتحاد الجمهوريات العربية سنة 1970 (5) الى آخر القائمة الطويلة من الوعود التى تموت بمجرد اجتيازها لكواليس السياسة ، وهذا

---

(2) المصدر السابق .

(3) عبد المنعم القيسونى ، التطورات العالمية الاقتصادية الاخيرة ، ص 15 .

(4) مجلة النفط والتنمية عدد 11 سنة 1976 مأخوذ عن التنظيمات المؤسسية والادارية للاجهزة المسؤولة عن ادارة الاموال .

(5) التكامل الاقتصادى مقال سعد ماهر حمزة ص 8 الثقافة العربية سنة 1975 عدد 9 .

السؤال لا يحتاج الى عناء الاجهاد الفكرى والبحث الطويل عندما ترتفع هنا وهناك فى أمكنة كثيرة من أوروبا تهديدات جادة بتجميد الارصدة العربية ومنعها عن أصحابها حتى قال الكاتب الفرنسى روجى Jean Paul Roger إنها (الأرصدة) أصبحت السلاح الحقيقى الذى يهدد العرب أكثر مما يهدد بترولهم العالم الغربى .

وهكذا تنقلب الآية ، ليفلت من العرب ما كان يمثل أقوى سلاح فى وجه أعدائهم .

واذا ما قارنا عوائد النفط من جهة واحتياجات الدول العربية لرأس المال لتمويل برامجها الانمائية من جهة كما يقدرها البنك الدولى للاعمار والانماء بنحو 23 بليون دولار خلال الفترة 1968 (6) فان فظاعة الفروق تتضح وتتجلى كاشفة غياب البعد التكاملى فى المعاملات العربية وافتقارها للتحليل العلمى .

وكحاصل لعدم استثمار عوائد النفط فى مشاريع تنموية نافعة ، إنعكس على قطاعات الزراعة ، ويكفى أن نذكر أن الوطن العربى يشكو استغلالا سيئا لموارده الارضية وانعدام الاستعمال للوسائل الفنية حيث لا يستغل من كل الاراضى القابلة للزرع سوى 6 و 10 ٪ فقط وحتى المساحة المستغلة والتى تقدر بـ 54 مليون هكتار يترك منها بورا نسبة 21 ـ 70 ٪ لاسباب مختلفة .

III ـ **الظروف المساعدة على التكامل :**

بعد أن شهد الوطن العربى اليوم مدا تحرريا عارما زحزح بمقتضاه الاستعمار وأعوانه يجدر به اليوم وأكثر من أى وقت مضى العمل على دعم استقلاله الاقتصادى .

فما هى الشروط الموضوعية المهيئة لذلك ؟

1 ـ وجود سوق عربية كبيرة قادرة على استهلاك وتذويب كل الانتاجات والسلع رغم وفرتها وتنوعها الامر الذى يعجل بتنامى الطاقات الانتاجية العربية ، ويجسد التكامل الاقتصادى ، ويوفر الاحتياجات الضرورية حسب متطلبات الاقطار العربية بعيدا عن الاحتكارات الامبريالية .

---

(6) التنظيمات المؤسسية والادارية للاجهزة المسؤولة عند ادارة الاموال .

وأهمية السوق تتبين أكثر اذا ما علمنا أن عدد السكان فى الوطن العربى يصل الى 138،4 مليون سنة 1972 وأن المساحة الاجمالية تقدر بـ 1352 مليون هكتار بنسبة 10،2 ٪ من مساحة الكرة الارضية (7) بالاضافة الى طاقة عمالية تفوق طاقة بلدان أوروبا مجمعة وثروات نفطية ومعدنية تمثل 32 ٪ من الناتج العالمى .

ولذا فان الدول العربية يمكنها تحقيق استقلاليتها والتحكم فى ثرواتها وتطوير اقتصادياتها حتى تستطيع التغلب على عراقيل ومشاكل التنمية .

2 ـ توفر الطاقات المادية والمعنوية المساعدة على سلوك سياسة تكامل اقتصادى ، وتتمثل هذه الطاقات فى الثروات الطبيعية والمعادن التى يزخر الوطن العربى بها ، بالاضافة الى هذا الوعى القومى الوحدوى والتوق الى التحرر من الاستعمار وتبعاته .

والاستفاقة التى يشهدها الانسان العربى اذا ما انضاف اليها تحكم سليم فى الموارد الطبيعية قادرة على صنع الحضارة العربية الجديدة والتى ستكون البديل لحضارة الغرب . وتحسس الانسان العربى لقضاياه ومشاكله هى البداية الفعلية للانبعاث الحضارى ، ولذلك لا بد من استغلال هذه الطاقات وتوظيفها فى خدمة قومية وتسهيل بناء الوطن العربى .

17 ـ دور التكامل الاقتصادى فى المواجهة السياسية والحضارية :

إن استمرارية حالة التجزؤ والتقزم أعظم فائدة للقوى الاستعمارية وفى مقدمتها الصهيونية باعتبارها فرصة للتفرد بالكيانات الهزيلة والابقاء على حالة الاستنزاف الاقتصادى ، ولذلك لا يمكن مواجهة هذه المخاطر المحدقة سوى بتهيئة الارضية الموحدة للعرب فى جبهة واحدة . واحدى كبريات المشاكل التى نواجهها اليوم هى حالة التمزق النفسى والتذبذب والاضطراب فى مواجهة الحضارة القائمة ، بالاضافة الى عجزنا عن فرض البديل الحضارى لها ، رغم أننا نملك المعطيات الاقتصادية والتاريخية والثقافية والاجتماعية لذلك . ولعل شعوبا أكثر منا جرأة ، استطاعت أن تختط بشجاعة أسلوبها الحياتى الحضارى وتعطى المثل بثوراتها الثقافية المتواصلة على تكسير طوق الحصار الامبريالى .

---

(7) التكامل الاقتصادى العربى : الثقافة العربية عدد 6 سنة 1976 ص 24 .

ولا أرى أداة ناجعة للعرب لصنع حضارة متميزة سوى بالتكامل الاقتصادى ووضع ستراتيجية مدققة تضبط كيفية إنصهار أعضاء الجسم الواحد التى تتطلب توفيرا لدوافع ومقومات النجاح ، وإرساء البناء على أسس علمية بما يكفل فاعلية المردود الانتاجى ومزيد الاستحكام فى الثروات الاقتصادية واستئصال داء التبعية .

فالتكامل الاقتصادى يترسم الاهداف التالية :

1 ـ ضمان انتفاع الانسان العربى بثرواته باعتباره صاحب المصلحة الحقيقية فى عملية التنمية .

2 ـ صنع الحضارة البديل لحضارة اليوم المغتربة .

3 ـ طرح نظام اقتصادى عالمى جديد يخلو من الاستغلال .

ولذلك فالقوة الاقتصادية العربية الضاربة هى الدعامة الحقيقية للحق العربى فى إسترداد الوطن السليب ، إذ لا يوجد حق لا تسنده قوة كما يقول أحدهم ، وقلما إنتصرت حقوق تفتقر الى قوة ، فتلك هى قوانين اللعبة السياسية فكل الشعوب المضطهدة لم تنل حقوقها الا بالكفاح المسلح والمطالبة المدعومة بالقوة . لذا يتوجب على العرب ترك إستجداء الهيئات الدولية والكف عن الطرح الأجوف للتحرك على محورين :

ـ بناء القوة الاقتصادية والتحرر من الاحتواء .

ـ الكفاح المسلح وفرض الحق المغتصب .

المنصف وناس

الغـــربـاء ..

قصة : حياة بن الشيخ

حين امتصصت جسد السيجارة الفاني ، كانت آخر قطرة للحياة قد جفت في فمي ، وأول دمعة للعدم بدأت تبحث عن نفسها في مقلة أيامي النادبة .

قلت في نفسي ومفاهيم ملتوية لوجود كافر تتمطى أمامي ، تلفح الجو الراكد برائحة حريق مختنق الانفاس .. قلت ربما نسيت نكسة مثاليتي ، وفي قعر الكأس المتلاعة الخضوع قد دفنت فشل الماضي وعناء المستقبل ، غير أن الهذيان عاد يمتطيني . والحمى أخذت تتمركز في شعاب ذاتي المتنكرة دوما لمبادىء ذاتي .

كان العالم الممسوخ ، المنكسر الاعضاء ينسحق في جوف الكأس . ومعاني الكون المحتضرة تتقاتل في عتمة دخان السيجارة بفل أخرسي . وكنت أنا ما أزال كما أنا ، جاثية أمام عتبة الدنى أرثي الوجود المنهوب الكبـريـاء .. المسلوب الاباء . أندب العالم المغتال بصمت تلدغني عقارب يتمي وغربتي . أبحث عن رقعة أرض أدفن فيها حطام العالم .. أواري أوهامه الضالة في رحاب الانحلال .. لكن البحث عن شبر أرض كالبحث عن نطفة زئبق القيت في رحم بحر سحيق الاغوار . خرافي الانواء ، لا تلكع مياهه قدم بشرية .

أظل أندب العالم الميت بصمت تصلي غربتي على جثمان يومي المسجى فوق نعش الاضطهاد منتظرا اليد الرحيمة التي ستفك عنه قيود القهـر ، وتودعـه مثواه الاخير .

ألقي بالكأس من يدي . أجمع رماد أفكاري . آلام مجنونة تدفعني . أجرى ، مجروحة القدمين أطارد نعل الانسانية الممزق أحاول أن أعيده الى الانسان الحافي الرجلين .. المقطوع القدمين . تلسعني الرمال المسعورة أنوح وشظايا عروبتي الشهيدة تتناحر تحت رجلي المحروقتين ، النازفتين بمعانـاة وطـنـي الطعين ، ترسم فوق الثرى ملحمة الوجود التائه في حلبة التدهور .

أتسلق أرداف الارض الجرداء . يتكور بطنها بأوجاع جشعة . تلفحنى رائحة أحشائها القذرة . الاشمئزاز يراوغنى . أروم الابتعاد . أرتطم بأنف الـزمـن النازف . ينحشر بين فخذى . أجذبه . ينتصب . يتمدد . يطول . يطول . يلتف حول جسمى كأذرع جهنمية تكبلنى . تنبش بذور وعيى الثائر الباحث عبثـا عن آثار حضارة أرهقت دهرا بسخف جهالتنا .. ولؤم قيمنا .. ينكسر فـوق هضبة مؤخرتى . ينتزع بعض فتات من لحمى المسلوق . يغرقنى فى بركة من الدمع والدم .

أغوص وآلاف الانوف المقطرة دما تحيط بى تتواثب حولى كرعاع بـائسين يحومون حول صنم الاههم الميت بخشوع رهيب . أتابع لحظة رقصتها الوثنية . وراحة مؤلمة تغزو حركاتى . تتلوى أنفاسى فى حلقى . يهرول كيـانى مطاردا أنفاسى . أضيع فى حلقة أنفاسى المفرغة . ظلال حمر تراود عينى ، الانـوف تواصل وثبتها الوثنية . تسقى جثتى العطش بسيل الامطار القانية ، المنهمرة منها كالهدير .

الملم انهيارى . تفر زواحف تمردى بعد أن تبصق قرفها فوق كومة تحاذلى اندفع نحو الساحة الدامية ترشح مسامى بحزن قاتم كأفكـار العـرب وهـم يتأهبون لطعن بعضهم بعضا فى مؤامرة علنية أو خفية .

نعل الانسانية الممزق يتبعثر فى التراب . تلطمه الانوف النازفة . يندس فى الوحل ينعى الضمائر الذبيحة ، والكون يموت حولى . يمـوت فى وهـج المقررات المتشابكة .. واسهال الآراء المرتجلة .

....

أتطلع الى السماء لاعنة . ناقمة . صفعة . أبكى . أثور . صفعة . أنادى الله المتجاهل مأساتى .. الرافض موتى وحياتى . رحيلى وبقائى !! أستعطفـه . أترجاه . صفعة . صفعة . صفعة . أقع والفدر يدوسنى مزمجرا . صفعة أخرى وصفعة . أخر صريعة ألفظ نقمتى وثورتى تركض ساخطة لاعنـة عـواصف ثورتى .

الاعصار يلتهم الطبيعة . الغثيان يعتصر مهجة السماء . تتقيأ فوق وجـه الغروب السقيم ، تبلل كفنى الاسود . الرعود تزغرد بغبطة فظيعة . والابالسة تقهقه للمهزلة القاتلة . تلغم اذن العالم بصهيل ضحكة مدمرة ، تجيش بفرحة مرحة النقمة .. « الخبث والرياء شرطان أساسيان لسعادة الانسان المتجـرد عمدا من فضائل الانسانية . والفقر والغباء شرطان أساسيان لسعادة البشرية

المستكينة لاحضان الجهل .. الراكنة لتفاهات البشرية » . والكل يتـلاشى . يضمحل فى حرارة النغمة ، الصماء . يندثر فى كهف الغربة .

يبتسم الغسق هازئا . خلقنا لكى نبقى نتقهقر دوما الى الخلف . لكـى نظل أبد الدهر لاجئين فى دهاليز دهر ملوث ، نخر الفسق هيكله.غرباء نزحف نحو شعاب التفكك معصبى الرؤوس بترهات تحشو عقولنا بسموم فتاكة تبيد ما بقى من معالم فكر صريع .. ولا نزال نزحف ، يجلد التكالب أفكارنا . ويبتز النزاع مشاعرنا الجافة .. والاقدام حافية ، مقطوعة .. والرقاب تطوقها مهانة الامس ،وضيم الغد المرتقب .

غرباء ، بلا ديار .. بلا وطن . حفاة ـ عراة نتنازع من أجل الحياة . نتطاحن من أجل عظامها الصدئة ، دون أن نفهم يوما معنى الحياة . نرزح فى سفحها المتسخ دون أن نجاهد فى الوصول ولو مرة الى قمة أمجاد الحياة . تخور الطبيعة حانقة من أسرار متشعبة المغزى . ينثنى الله عائدا الى سكون مثواه . ينزوى قانطا ، لاعنا غباء البشر وانسياقهم المتهور . يعود الكل الى سباته ناسيا ، أو متناسيا معركة الحياة الفاشلة . يعود اللاجئون فى متاهات العروبة ـ المتخبطة فى فخ العروبة ، يعودون الى قتامة البؤس العالمى ، تضج بهم أوكار السخط . تسير خطاهم خيبة المقررات الرجسة . ونكبة المخططات المتقلبة .

....

« ـ الحب .. المرأة .. الموسيقى .. أجمل ما فى هذا الكون .. ثم هذا هو الشىء الباقى فوق سطح الارض .. الشىء الذى لم يفلح أحد فى اختلاسه أو مصادرته .. » .

« المناورات لن تنتهى .. تعنت الآراء وتضاربها .. وتشتت الاحزاب .. لن يتمخض الا عن حرب لا تبقى ولا ترحم .. من يدرى ربما نحن على أبواب حرب عالمية ثالثة .. فالنزاع على أشده بين ... »

قاطعنى وعيناه تعلكان معالم وجهى بجرأة وقحة : « آه ما أعذب الحياة .. وما أشهى عبير حواء » .. صفعته بنظرات شزراء . لمن هذه .؟ ليس هناك غيرى المكان شبه خال من النساء . اذن الهمسة موجهة الى . تلقيت الطعنـة بهـدوء ورغبة تستبد بى . تحثنى أن أمسكه من شعره ، وأنهال عليه ضربا وركلا .. لولا .. أناس يرتقون سلالم الدهاء . يزحفون نحو العلا دون كلل . وآخرون لم يبق لهم من دنياهم غير التفاهات ، وسخف الغزل .. هل سيبقى كل واحد منا يسير فى طريق يطارد انعكاسات أفكاره دون أن يلتحق بركب الآخر أبدا ؟

تعارفنا لكي لا نتفق . وتقابلنا لكي لا نتعارف .. وتفاهمنا على أن لا نتفاهم أبدا .. ربما من أجل ذلك التقينا .. النقيض يسحقنا .. لكن الظروف تجمعنا .. رغما تجمعنا ..

تململت فى سرى نقمة رعناء لاعنة الجنس البشرى كله ، وخيبة مرعبة تتكوم تحت قدمى . تجذبنى اليها عنوة ..

« أحاول أن أجعل منك انسانا كما أفهم وكما أريد ، لكنك لا ترغب أن تكون غير حيوان متوحش الطباع ، لا تجذبه الا قاذورات الدنى » .. ابتسم ببساطة ساحقة وهو يحاول أن يتبرأ من آثار انسانية شنيعة أجاهد أن ألقيها عليه غصبا ، ويسعى هو بكل قواه للتحرر من قضبانها المحدقة به .

« ان كنت تريديننى أن أتخلى عن رجولتى لاصبح انسانا كما تتخيلين ، وكما بصوره لك وهمك الهارب عن قواعد المنطق ، فلا أود أبدا أن أكونه .. بل أفضل أن أظل حيوانا لا تجذبه غير القاذورات .. ألهث خلف التفاهات دون تعقيد أو مراوغة .. »

فكرت فى نفسى ومدن بلورية تنكسر فوق رأسى ، تسعل تحت أنقاضها كرامة تغتصب .. وكلاب عطشى تنبح .. وأوطان مسلوبة تنوح ، ولاجئون ضجت بهم الارض ، يلفظون نقمتهم ثورة مجهوضة .

حتما من الصعب أن يكون الانسان انسانا فى عصر تشعبت فيه الرغبات ، والمطامع .. تشعوذت الافكار .. واختلطت فيه المعالم الحقيقية للانسان فلم أهف دوما الى المستحيل ، وأطلب من الجميع فوق ما يستطيعون .؟ هل للانسان الكامل من بقاء فى هذا الزمن المطعون الخلف .. الميت الهمة ؟ زمن يباع فيه الانسان ويشترى اثر نزوة عابرة .. ويقرر مصيره فى صدفة .. أو كلمة شاردة ...

أغرقت خيبتى فى الكأس الحالمة قبالتى وأنا اتقاتل مع السحب الكثيفة التى ابتدأت تتناسل أمام مقلتى .

اللحن يزداد قوة . يكاد يختطفنى من مقعدى . يلقى بى وسط أيكة عاطرة الازهار .. شادية الاطيار .. أبقى أحلق كفراشة حيره يسكرها أمل الربيع .. أنتظر انسانا كما أفهمه وأريده . أضع يدى فى يده ، نفر بعيدا .. بعيدا .. نبحث سويا عن نعل الانسانية الممزق . نرتقه بوثبة أوهامنا المضيئة . ونخيط ثقوبه باحلامنا التى ما فتئت تراود مثوى الشهب .

عادت عيناه تتسكعان فى جراة حولى . تبحثان عن موضع ما تتسللان اليه . الموسيقى تخفت لحظة ، لتعود تثو رمعى على وضع شائك لم نفهم بعد كيف كان ، وكيف يتحتم أن يكون .

« ـ لحن رائع ومثير . فيه رقة . وفيه تمرد .. وثورة مستعرة الايقاع ترقب اللحظة التى تفك فيها لجام حيرتها » ...

« ـ انها سمفونية « شهر زاد » ـ لتشيكوفسكى ـ رائعة .. أليس كذلك ؟» ابتلعت شهقة وعلامات استفهام منكر تقفز قربى . أرمقه ، دهشة . مصعوقة . كارثة الفنان الاصيل أن يجهل أصالة الفن . وقيمة الرجل الواعى تكمن فى تغاضيه عن حقائق ما جاز له أن يتغاضى عنها ، أو أن يتحاشاها . قررت أن أصمت وأتركه يسبح فى يم هفوته .. لم أحرمه من ميزته .. ميزة الموسيقى الذى يجهل الموسيقى . هذا شعار الوجود الجديد . الجهل هو منارة كل من تبرأت منه الحياة وأراد أن يبقى عالقا بعنقها ، ينهل من رحيقها رغما عنها .

عادت الاشباح الغريبة تراوغ بصرى . تعاكس العبرات المترقرقة فى قرف أليم . عدت أمتطى سأمى ، أعاكس أنا الاخرى صورة غامضة ، مظلمة قضيت العمر ألاحقها دون أن أتوصل الى مثواها ، أو أعرف منطلقها الاصلى .. ان كان « رمسكى ـ كورسكوف » قد ابتكر سمفونية رائعة مثل « شهر زاد » فلا بد أنه كان انسانا حقيقيا .. تعذب وتألم . سار سنوات فى متاهات الضياع باحثا،منقبا الى أن وجد معالم انسانيته المدفونة تحت أنقاض المفاهيم المصلوبة.. لكن السعى أعياه فلم يواصل الزحف فى مسيرة الرفض ليختطف بقايا الانسان من براثن الخمول . ويقدمها الى نماذج ما شبه الانسان .

لقد سعى .. ووصل .. أو كاد .. انما هو هل حاول ؟ والآخرون هل ..؟ تتثاءب نظراتى بملل متسائلة عن أشياء مجهولة ، مريبة قد وقعت ولست أدرى الى الآن كيف تم لها ذلك ، ولماذا ..؟ ازدادت ابتسامته اتساعا وهو يجاهد فى الاقتراب منى ، بينما حواجز وحواجز ترتفع بيننا ، تبعدنا بعضنا عن بعض لسبب خفى رغم سعينا لتفادى ذلك .

ـ « أنت تعقدين الحياة بلا مبرر . لم لا تقبلينها ببساطة ودون تفكير متعب؟ خلقنا لنعيش بلا جنون . ولا نكد . وها نحن نعيش .. ابتعدت عنه وكل مشاعرى قد استعدت لخوض معركة أعرف أنى منتصرة ، وخاسرة فيها فى نفس الوقت ..

« ـ لكي يكون الانسان انسانا فلا بد من معاناة . ولكي يصبح الفنان فنانا مبدعا لابد من مأساة . الابداع معاناة أولا يكون .. »

تراجع سريعا وهو يحنى رأسه فى رضى مغتصب . « نعم .. نعم .. لك الحق » .. لكننى متأكدة أنه لا يفكر جديا أن يكون انسانا كما يجب أن يكون ولا يود أن يغرق نفسه فى عباب المعاناة والابداع .. انما كل تفكيره قد انحصر فى شيء واحد .. كيف يقترب منى ؟ كيف يجذب يدى الشاردة ليودعها فى كفه الزاحفة نحوى بالحاح مغر ووقح .

ـ « لو تعرفين كم أحبك . كدت أنف على وجهه مذ عـرفته وهـو لا يفتـأ يوافقنى على كل كلمة أقولها دون أن يفهم جيدا حقيقة ما أقول . ولا حاول أن يعى كنه أفكارى .. ولا مل تكرار كلمة أحبك .. أيتكلم هذا الحالم عن الحب والارواح قد دمرها التذبذب . والبطون خاوية تطلب رغيفـا أسـود دون أن تجده . والحشرات البشرية تغزو الاراضى المجدبة تبحث عن وكر دون أمن فى ذلك .. هل للحب من وجود فى زمن عمه الاضطهاد ، وهوت فيه النفوس الى الحضيض ، وانزلقت الاخلاق الى الهاوية .. هل من مكان للمشاعر الطيبة فى زمن القحط والرعب ؟ ألا يصمت هذا المخرف اذ كان لا يعرف ماذا يقول ..

تعود أفكارى تتزاحم ـ تتصارع فى ما بينها وقد قررت أنا الاخرى أن أصمت . أترك « شهر زاد » تحكى للجميع عن مأساتها والندم يأكـل قلبـها لحماقتها الشنيعة وهى تتمنطق بسيف الدهاء لتوقف مذبحة « شهريار » الثرية المغزى . صمتت « شهر زاد » معى . انزوى « رمسكى ـ كورسكوف » فى ركن قصى من برج ثورته يجتر تخمة معاناته . لم تبق غير نظراته تصطخب بألف علامة دهشة .

ـ « شهرزاد » كانت حتما امرأة معتوهة المساعى . مجنونة المآرب .. لكى توقف عجلة عمرها الراكضة نحو الفناء ارتكبت أفدح غلطة بعد جريمة القدر الكبرى ما دام « شهريار » قد قرر الموت للاناث العقيمات الجدوى ، فلا بد أن رغبته كانت مرتكزة على ايديولوجية حكيمة . صائبة. بعيدة الرؤية ؟ ما جدوى الاناث الرخيصات الانوثة.؟ هل آلات تفريخ عتيقة لا غير ؟ وما دامت هذه الآلة دائبة التفريخ بالصراصير الآدمية فلن تكون لهذه الحياة السقيمة نهاية . كل فى تناسل . الهموم . المتاعب . العقد النفسية ، الا الخير فقد غدا دوما فى فرار ، ولا هروب من الفقر الافريقى المتراكم مع الايام ، الموغـل طاعـونه فى جوف الارض العربية المرصودة للبغضاء ، والنزاع الابدى ..

لا بد من تحطيم هذه الآلات العتيقة التي قضت على الجوهر الاصلي للانسان وأغرقته في خنادق البؤس والتلوث . اناث دائبات السعي خلف ذكور . وذكور بلا قلوب يقتفون آثار بغايا ميتات الاحساس بلا جنس أو هوية . هذا يلحس خطى ذاك . وذاك يهفو لان يضع قدمه فوق رأس الآخر . الكل يطارد الكل والدهر يطارد الجميع . يقمع زحف الجميع . يتلهى بعثرات الجميع ، يزج بهم في توابيت التحنط ، والسراب اليومي المخادع .. الكل مطوق بأغلال الرغبات المكبوتة . غارق في مستنقع الازدواجية الحضارية . وأفواه خفية تقهقه في نشوة مريبة . تضحك على استسلام الجميع . وخضوع الجميع وتبلد أهواء الجميع » .

ـ « لم لا تكون « شهر زاد » بطلة فعلت المستحيل كي تحافظ على كيان الحياة .. ومنع دم جنسها من السفك . لا شيء أجمل من جسدين متعانقين في وئام لامرأة ورجل قد جمع الحب بينهما . ورفرف التآلف حولهما . ما دام الله قد خلق الانسان ، وبسط الارض بين يديه وأولاه نعمة البقاء ، فلم لا نقبل مشيئته كما هي ؟

ـ « الانسان ما هو غير تسلية أرواح مجهولة ، خبيثة النوايا ، لئيمة المزاج ، لا غير .. لكن أليس أمامك الا أن تقبل . ترضخ دون مقاومة ، أو تساؤل لكل القوى الخفية التي تسيرك . ألا تحاول أن تثور مرة ولو لمجرد متعة الرفض ؟ الابله هو من يتقبل كل شيء بصدر رحب . ومتجمد العقل هو الذي لا يقول أبدا . لا .. لا .. لا ..

الخمول والخضوع خطران يهددان الكون لو لم يقع « شهريار » المغفل في مصيدة « شهرزاد » التي عرفت كيف تحيك مؤامرتها الماكرة لشل خطى المذبحة ، لكانت الحياة الآن ..؟

ـ « بل أقول إن التعقيد ، واللاوعي الثوري هما الخطر الاصلي الذي يهدد سلامة العالم .. ويستأصل جذور البقاء .. »

ـ « أوف . ألن تتغير ؟ ألن يتحرر الانسان من سخافات الانسان ؟

....

يبتسم . الاطيار تزقزق فوق رأسينا مبتسمة في لحن مألوف مضجر . الجدران تبتسم . أفكاري تبتسم هازئة من محاولاتي الفاشلة . واللحن عاد يبتسم ثائرا .. هادئا .. مستسلما .. متمردا .

احساس صاعق بالغربة يمتصني . يعلك كل محاولة لي في المقاومة . تأكدت أني لا أستطيع أن أكون انسانا كما أشتهي وسط مجتمع لم يفهم بعد الحقيقة الاصلية للانسان .. ولم يحاول خوض معركة لو كانت خاسرة لحل طلاسم الخلقية . وفك رموز التناسل الازلي .. وحيدة . غريبة في مفترق رفضي ومعاناة وعيي الاحمق ..

ـ « جمود يتمخض عن جمود . وسأم يضاجع سأما . كم هي مملة هذه الدنيا .. حكمة الله ، وتسليته في ملكوته .. ونقمته على عباده .. »

ـ « الجنس هو خير ترياق لمقاومة السأم . والحب أنجع وسيلة لقتل الملل .. لكن ... »

ـ « ألا ترنو الى الحياة الا من تحت قدميك .. لكأنك تعاني من ويلات كبت جنسي ؟ لا يهم .. لست الوحيد .. العروبة كلها أصيبت بهذا الداء . خلق العرب ليظلوا دوما في شبكة حصار كبت ما . فكري . جسدي . أو نفسي . نحن نرقب اغاثة دولية كي تحل هذه العقد الفظيعة ، قبل أن نصاب بالانهيار العصبي .. لكن المشكلة هي أنها حرمت علينا حتى هذه المتعة .. لا يمكن أن يستبيحها كل من يريدها ، الانهيار العصبي هو متعة الاثرياء المترفين .. انما البؤساء لهم السوط يبعد عنهم كوابيس الانهيار .. ويعيد اليهم وعيهم المفقود.. ورشدهم المتكاسل .

الحياة .. الانسان .. الجنس .. يا لها من خرافة التهمت عقول الاغبياء دهورا.. لكننا واحسرتاه شعب يعيش على الخرافات .. ويتشبث بالاساطير .. لو دفنا يوما هذه الخرافة في قمقم النسيان .. ربما ...

... .

نهضت أجرجر تعبي . تعبني دون تساؤل . سرت بصمت . سارت معي لحظاتي صارخة في لجج زفراتي وأحزاني تتكور . تتكور قبل أن يبتلعها الطريق المترب كنوايا الدول الثرية وهي تغرس بذور النزاع في صدور الشعوب الفقيرة . كي تدفعها نحو التناحر ، وطعن بعضها لبعض من أجل جنيه مزيف .

اعتصرني ألم وقدمي تنزلق في حفرة قابعة في جوف الرصيف المثقوب .. بدأت تتورم بسرعة عجيبة . تتبع أشجاني المتورمة باضطهاد مثاليتي النازحة من بروج مثاليتي !!

تمنيت لو كان « رمسكي ـ كورسكوف » جاثيا قبالتي . أرتمي بين أحضانه باكية . أبكي لوعة سنين من الصراع والبحث العسير عن حقيقة مفقودة ويقين ضائع ثقبه الشك لكن كما قال لي ما أنا سوى سنونوة تحلم بالتحليق في الاجواء الضبابية النائية . غير أن عواصف الشتاء تصفعها . تعيدها الى حيث كانت الى العش الصغير البارد . حيث تبقى محطمة القوى تحاول القفز نحو فضاء رحيب عاشت الدهر تحلم به وقفص الانهيار المرصودة اليه يجذبها بوحشية قاتل محنك .

لو سجد قبالتي ربما وجدت بين ذراعيه مصير العالم المتسائل عن نفسه في خضم التمزق . ربما استطعت أن اتسلق كتفيه رغم جسمي الجريح ، نخوض معا غمار بحار سحيقة الوحشة ، مشحونة بأماني « سندباد » المعذبة . نهيم . نهيم الى أن تلتقفنا مرافيء اليقين . ترسو مراكبنا وبين أيدينا احلام «شهر زاد» النائمة تحت رماد الآمال العربيدة ..

....

سرت أترنح تحت وطأة يأس مزمن لا منعرج له . قفز بجانبي وهو يقاوم سحابات ضيق متعجب . الاشجار تلاحقنا . تعانق تخاذلي . يعانقها صمتي . تتغزل بتمردي الميت . أرفض الغزل السمج . يرفض الكل الانصياع لرفضي الملتاع . تتجهم شمس الغروب في علياء سمائها ، مكفهرة السحنة من أثر خاطر اغتصب عرين أحلامها . كنت أود أن أقول له : إني انتهيت . قضيت نحبي وما عليه ان كان يحبني حقا ، الا أن يسير خلف جنازتي .. يلثم تابوتي ، ويذرف دمعة يسقي بها تربتي العطشى .. أقول له إني لم أعد أؤمن بشيء .. لا بالقيم ولا بالحب . ولا بالوجود المتقلب المزاج .. ولا بعبث الكائنات .. سئمت كل شيء .. وليس لي أي أمل في أن أجد في يوم من الايام انسانا حقيقيا أفرغ أفكاري في أفكاره . أشحن صراعي بصراعه . اوقد شعلة ثورته من نيران رفضي . أضع يدي في يده كي نمتطي جواد التمرد . نجوب متاهات الحرية .. نكتشف معا مهزلة الوجود .

لكن ما جدوى الكلام وهو لا يود أن يفهم . لا يريد أن يلمح في الا المطية العذبة التي يحترق رغبة الى ركوبها كي يقتحم جحيم اللذة المغرية .. لا هو حاول أن يعي . ولا غيره وعى ..

ـ « عفوا .. هل تسمع .. ؟ »

ـ « ستبقين .. هل غيرت رأيك . هذا أفضل الدنيا كما هي جميلة بلا متاعب ولا شذوذ مبادىء .. »

ـ « مهلا .. مهلا .. دع عنك الدنيا وجمالها . كنت أريد أن أقول لك .. »

ـ « اسمعى .. ما رأيك لو نقضى الليلة معا . كم أتمنى ذلك .. »

ـ « انت تحلم على ما يبدو ولن تصحى أبدا . أظن . العالم كله الآن يعيش فى حالة غيبوبة . اجترفه تيار الحلم فلم يعد يضع تفرقة بين الواقع والخيال بين الحكمة والتهور . بين ما يود ان يفعل وما لا يستطيع أن يفعل !! لكن يبدو لى آن الاوان لكى نكف عن هذا الهراء . لم لا تتحضر وتسمو بمطالبك؟لن يتطور البشر ما دامت حياتهم منحصرة على رغيف يلتهمونه . أنثى ينهشونها ومؤامرة يحبكون وقائعها فى الخفاء ..

ـ « قلت لك عيبك الوحيد أنك تعقدين الحياة بلا مبرر .. »

ـ « لا بأس . التعقيد هو شعارنا الدولى . ربما لا تستقيم حال العصر المتطور الا بالتعقيد . انه امتياز عصر الذرة .. انما كنت أريد أن أقول لك ، حاول أن لا ترتكب غلطة فادحة مرة أخرى أيها الفنان الجاهل أصول الفن . ان « شهر زاد » هى «لرمسكى ـ كورسكوف» لا «لتشيكوفسكى» كما تتقد . هفوة لا تغفر .. »

تقهقر الى الخلف وبوادر غضب مكتوم تزحف نحو صفحة وجهه المتالق ، المشوب بحمرة طفيفة كسماء صافية اقتحمتها شمس الصباح المشرقة . ابتلع ريقه بصعوبة وشفتاه ترتعشان فى حيرة لذيذة .

ـ « لست أجهل لمن تكون . انما غلطة بسيطة . مجرد هفوة . كنت مشغول الخاطر بأمور أهم من .. »

« ـ الهفوات البسيطة هى التى سممت خلايا الكون . ولعقت دمه . غلطة بسيطة هى التى ابتكرت الانسان والقت به فى هذا الوجود الكافر . كان الله يريد أن يتسلى فى لحظة ضجر عابرة ، واذا به ينقاد الى اللعبة غصبا ولم يجد امامه فرصة للتراجع .

غلطة بسيطة اقترفها اجدادنا . وآباؤنا ، وأمهاتنا فى ساعة تقليد وحمق.. فجئت أنت . وجئت أنا .. وجاء بائسون غيرنا . وغيرنا بقينا نتمرغ رغما فوق صدر الارض نمتص نهدها المترهل الذى جف رحيقه . ونضب نبعه .

غلطة بسيطة وفظيعة هى التى هيأت لقانا فتعارفنا .. وغلطة أكبر فظاعة هى التى ترغمنا الآن على الفراق .. غلطة شنيعة جعلت منك مجرد صورة باهتة لرجل متجمد الطموح .. وغلطة افدح شناعة هى التى جعلت منى امراة معذبة

الفكر . ثائرة الطموح .. دائبة التشعلق فى جبال التمرد ، باحثة عن شظايا الانسان النصف ميت .. لكن أظافرى انكسرت . وأصابعى تمزقت وأنا أغرسها بيأس وعناد فى أديم الجبال الشاهقة ، ولم أجد شيئا . ولا أخالنى سأجد شيئا فى يوم ما . هل تعرف لماذا لن أجد شيئا ..؟»

زم شفتيه وزوبعة من الاسئلة تتلاطم فى يم عينيه الحالمتين :

- « لم يا ترى أيتها الفيلسوفة المعقدة ؟»

- « لا داعى . لن تفهم كلامى أبدا . كما لن يفهم البشر حقيقتهم أبدا . لا يهم . لكن ان كنت جادا فى معرفة شىء . اذهب إلى فراشك . اغمض عينيك. اجهد نفسك فى التفكير . حاول أن تكون ولو للحظة واحدة انسانا حقيقيا له معاناته ومأساته .

استمع الى « شهر زاد » فستغرقك فى حقائق غريبة . معتوهة ومثيرة . انما قبل كل شىء حاول أن تتخلص من تفاؤلك المريض الذى يقتلنى . واترك لفترة قنوعك الساذج ، ورضاك بكل ما يقدم لك . فسينجلى أمام مقلتيك المبهورتين وجه الحياة الحقيقى فى أوج غاياته المزدوجة . ودسامة تقلباته وانهياراته . ربما توصلت صدفة الى حل ألغاز الوجود .. مرة أخرى أرجوك دع عنك التفاؤل المقرف . أى شىء يدعو الى التفاؤل والفرح فى هذا الزمن المقطوع الانف ؟. أى شىء .. هراء .. هراء .. فقر .. مجاعة . ظلم . حروب . حقارة . دهاء .. قرف من الحاضر . ورعب من المستقبل .. من الآتى الموجع . هذه الدنيا دناءة كلها . عربى ينصب الفخاخ لعربى . شرقى يتواطأ ليبتز سذاجة افريقى وصهيونى يراوغ لينتزع تأييد مسيحى .. والحقير حقير ان لم يدرك كيف يصبح حقيرا .. والغبى غبى من لم يعرف كيف يكون غبيا .. هراء .. هراء .

- « وأنت هل تسمحين بكلمة أيتها السنونوة الضائعة .. لى أنا الآخر نصيحة مفيدة لك . اذهبى الى البيت . تناولى حبة مهدئة للاعصاب . استلقى فوق سريرك . اخلعى العصابة السوداء التى تحجب عن مقلتيك نور الحياة المضيىء . حاولى للحظات أن تكون امرأة . مجرد امرأة بلا مطامع مزدوجة . ولا آراء متشعبة . ولا مركبات خفية . أو تشنجات فكرية . امرأة كما يجب أن تكون لاكما تريد أن تكون !!

استمعى الى « شهر زاد » دعيها تتكلم عنك . انصتى الى نجواها . حاولى فهم شكواها . لا تسلطى عليها غرورك ولا ثورة . تمردك الاهوج . استمعى اليها فى كل رقتها . ووداعتها . وطيب نواياها .. ستكتشفين ساعتها دنيا ما كنت أبدا

تحلمين باكتشافها . وستنجلى أمام أمانيك الممزقة مشاعر كان يصبو اليهـا قلبك منذ الامد ، انما شيطان رفضك عرف كيف يقصيك عنها بمكر شرس ، فكرى . ثم تعالى أيتها السنونوة الرافضة ، ستجديننى فى عـش الحقيقـة ، انتظرك أنا والحياة .. تعالى لنستقبل ربيع « شهر زاد » الذى لا يموت أبدا .. انما كونى امرأة . حاولى أن تكونى امرأة لو مرة واحدة . لو غلطا .. أنا فى انتظارك .. » .

أدير له ظهرى . قدماى تلتهمان الطريق بغيظ مفجع . الطريق يلعن رفضى ورفضى يلعننا معا. تفاؤله يجلد ثورتى. وثورتى تبتر تفاؤله رغما عنه.مغرور. أحمق كالجميع . ساذج . لا يبالى كالآخرين .. ككل أغبياء هذا العالم الاعرج..

لكننى أشعر أنى حقا سنونوة ضائعة . افتقدت عشها ولا تعرف أين تغدو .. وفى أى جو تحلق .. فهل لهذه السنونوة من ربيع ؟ هل يقبلها ربيع «شهر زاد» أم يرفضها ؟ أم أن السنونوة الحالمة مآلها الضياع فى مدينة الصقور الدامية المطالب ؟ مآلها الفناء فى ليل هذا الدهر المتشنج الاعصاب ؟

تنهمر أشجانى تبلل أوراق وحشتى الحالكة . تنتصب مصيـدة غـربتـى تترصد خطاى المتعثرة . ربما أصبحت فى يوم ما انسانا كما أهفو أن أكون .. وكما يتحتم أن أكون .. أو ربما بقيت العمر أدير الظهر الى الكل ، والزمن يدير لى الظهر باستهتار ملحد ؟. ربما ؟ ربما ؟

أين أنت أيا فارس الغربة انى فى هوة التمزق أرزح هل تجـد لى يـومـا طريقا ؟ متى ؟ متى ؟

....

هبت رياح عاتية زحزحت صخرة هجوعى . قفزت من الهوة الموحلة التـى ازدادت اتساعا وهى تسوقنى نحوها . أطفأت شمعة رعبى بزفرة حامية . أخذت الاحق غيوم التعاسة المكللة ربى حياتى . جراحى تنزف . تنزف . وعمرى يتدحرج فى المسالك المظلمة باحثا عن زاوية آمنة يرتكن اليها . هراوة قدرى ما زالت تفتت عضدى .. تتعقب تمردى . تدوس فى عدوها رفضى الموؤود .

ابتسمت بومة وهى ترشقنى بنظرة نكراء فيها تشف . وفيها نقمة.نقرت جبهتى بغل أبكم . ارتشفت انصياعى . ارتمت فوق راسى المصدع تسوى به عشا . كتمت صرخة وأنا أجاهد فى الانفلات . عادت أنوف الزمن المتشحة بدمها

ترقص حولى ، تدفعنى لاسبح معها فى بحيرة المياه الضحلة . تقودنى خطاى الى حيث لا تود خطاى أندفع نحو القبر المتعفن مرة أخرى .

نظرت الى المرآة النصف مهشمة . أفزعتنى فظاعة الصورة الساخرة من ذهولى . كانت البومة ما تزال متمركزة وسط حفرتها فوق رأسى ، تصبغ شعرى الاشقر بسائل نتن أخذ يتبخر فى جو الغرفة الضيقة كجحر جرذ يتيم .. فيها روائح وبائه .

أحاول أن أزحزحها من مكانها . لا أستطيع . عيناها تتوهجان ببريق حاد .. أركلها بيدى . ينغرز منقارها فى جمجمتى ، تسوى فيها حفرة عميقة القعر . أولول حانقة تزداد نظراتها الماكرة تحديا وشراسة . أجرى نحو الحائط الهرم . أرمى برأسى فوق صدره المنتفخ : ألم صاعق يهدنى . أتأرجح لحظة فى الفضاء . تتناطح سرابات الانوف النازفة حولى ، متشابكة بقوافل الاقدام المبتورة لحيوانات منبوذة .. مطاردة من الحياة . خلقت لتكون تسلية قراصنة الحياة . الجدران تتأوه . تخر فوق جسمى المشلول . ترفسنى أنا والبومة المعشعشة فوق رأسى المتناثر الخصلات كسنابل عسجدية هاربة من يوم الحصاد . ينشطر رأسى الى ثلاثة أشطار . يسيل دمى أنهارا . ينفتح الجدار . تختطف يد أسطورية الرعب ، البومة اللئيمة العناد . أسقط على الارض أتشمم شذى الراحة المنتظرة . والنهاية الموعودة ربما أخيرا ..؟

....

تنغرز خناجر الشمس المستيقظة تنبش جراحى . تنفتح عيناى غضبا أجدنى وسط مقبرة مهجورة ، خربة القبور أتصارع أنا وآلامى فى عتمة تابوت ضيق وبجانبى آلاف الانوف الممزقة .. والاقدام المقطوعة تنز بذل قاتل ، تشحن رئتى المثقوبتين بهوان جائع . لكننى منذ فتحت عينى ، قرأت فوق صفحة النهار العابس ، أنى سأعيش أبدا منشطرة الى ثلاثة أجزاء . ممزقة بين ما أريد وما لا أريد ، وما يمكن ، وما لا يمكن أن أريد !!!

شطر أعيشه أنا !! شطر يعيشنى مع اللا أنا !! وشطر يعيشنا معا رغما عنا . متجاهلا تمرد ورفض الأنا .. وثورة وتعنت اللا أنا !! يجرجرنا باستبداد جشع يدفعنا نحو مجزرة الانسلاخ . لكن لا نصيب لى فى الحياة فى اى شطر كان . ولا بارقة خير فى حكمة أنا !! وتدهور . واستهتار اللا أنا !!!

لا حياة لمن عاش منشطر الاجزاء .. فى عالم ضج سخطا باللاجئين الغرباء !!!

حياة بن الشيخ

مشكلة التربية الاخلاقية والدينية في البلاد النامية

بقلم : محمد فاضل الجمالي

— ۱ —

من اعظم الانجازات التى تحققت فى القرن العشرين الميلادى تحرير العديد من شعوب آسيا وافريقيا من ربقة الاستعمار .

فان هذه الشعوب التى تحررت تشكل الكتلة المهمة من الشعوب التى تنعت « بالشعوب النامية » .

إن مصطلح « الشعوب النامية » يستعمل فى عصرنا هذا للدلالة على الشعوب التى حققت استقلالها السياسى أخيرا وهى طامحة الى القضاء على التخلف فى حقلى العلوم والتقنيات . ثم إنها تسعى لتطبيق مبادىء اعلان حقوق الانسان ، وفى مقدمتها الحريات الاساسية ، على حياة شعوبها . وبكلمة أخرى فالشعوب النامية هى تلك التى تطمح الى بناء مجتمع جديد ذى مستويات صحية واقتصادية واجتماعية أفضل وذى نظم سياسية تقدمية .

ولتحقيق هذه الاهداف تحمست هذه الشعوب بالاقبال على التربية والتعليم ذلك لان التربية والتعليم هى أضمن وسيلة لتحقيق الاهداف الاجتماعية . ولكن التربية لأجل ان تكون ناجعة ومثمرة ينبغى ان تؤسس على قواعد روحية واخلاقية .

ما الذى حققته الشعوب النامية فى حقل التربية والتعليم ؟

ان العديد من هذه الشعوب استوردت أنظمة تعليمية من الخارج او رسخت الانظمة التى وضعها لها حكامها السابقون .

إن هذه النظم التربوية ربما تكون قد حققت ما أريد منها فى الماضى ولكنها على المدى البعيد وعلى نطاق شامل قد لا تكون ملائمة لاحتياجات الشعوب النامية . إنها نظم تؤكد عادة الحفظ اللفظى للدراسة الاكاديمية وتقتصر على استعمال الكتب من دون تطبيق فلا تعنى عناية كافية باخلاق الطالب وبناء شخصيته الامر المطلوب من اية تربية حقيقية . ولذلك فالتربية الاخلاقية قد تترك فى أغلب الاحوال للصدف وللاهتمام العرضى ذلك اذا لم تنس وتهمل تماما . ففى الحياة المدرسية الاعتيادية قد يكتشف المرء أحيانا ظاهرة المحاباة والحسد والغش والتعصب .

نحن نعتقد بأن كل نواحي الحياة فى الشعوب النامية تتطلب اعطاء الاولوية من العناية الى الاسس الاخلاقية والروحية .

فاذا أرادت الشعوب النامية اكتساب العلوم والتقنيات مثلا فلا بد لها من ان تدرك بأن العلوم والتقنيات مدينة فى وجودها ونموها الى بعض السجايا الاخلاقية الضرورية التى بدونها لا تقوم علوم ولا تقنيات. ومن هذه السجايا : حب البحث عن الحقيقة والدقة فى البحث وهما يتطلبان النزاهة والاخلاص فى العمل ، الصبر والمثابرة وهما يتطلبان الغيرية والوعي وصفاء الذهن وهما يتطلبان العفة والطهارة .

ان التنمية الاقتصادية الصحيحة للبلاد النامية تتطلب أيضا أسسا اخلاقية . إنها تتطلب تعليم الفرد ان يكون أمينا ، محبا للعمل ، مجتهدا ، دقيقا ، مثابرا ، متعاونا مع الغير ، يساعد الغير ، محافظا على المواعيد ، مرتبا ، نظيفا ، مستعدا لتقبل افكار جديدة . وكل ذلك يعنى غرس سجايا اخلاقية فيه .

إن الاستاذ غونار ميردال الاقتصادى السويدى المعروف وجد فى الاحد عشر بلدا آسيويا التى زارها ودرس اقتصادياتها أن التربية قد قصرت خاصة فى تكوين السجايا الاخلاقية التى أشرنا اليها توا . وقد قال بحق إن المدارس فى هذه البلاد تزود الطلاب بجوازات سفر للهروب من العمل اليدوى .

فالتربية لأجل التنمية الاقتصادية الصحيحة والعادلة ينبغى أن تبنى على أسس اخلاقية .

فالبلاد النامية سوف تدرك ان عاجلا أو آجلا ان العديد من النظم التربوية المستوردة من الخارج والمطبقة فى ظروف تختلف تماما عن الظروف السائدة

فى البلاد التى استوردت منها ليست ملائمة لحاجات البلاد النامية . فانها قد تعنى بتخريج الشبان والشابات الذين يترفعون على العمل اليدوى فيصبحون من ذوى « الياقات البيضاء » فان عدد المحامين والباحثين عن أعمال فى دوائر الدولة قد يزيدون عن الحاجة فى العديد من الحالات .

ولذلك فالجامعات « قد تصبح » فبارك « لتخريج العاطلين » ، وبينما تراد التربية لتأمين النمو الاقتصادى للبلاد واذا بها تصبح ذاتها مشكلة اقتصادية للبــلاد .

هذا وإن دور الاخلاق فى الحياة السياسية قد يكون أعظم مما هو فى الحياة الاقتصادية . فالبلاد النامية تحتاج الى حياة سياسية مؤسسة على احترام حياة الانسان وحرياته وكرامته . وإن الحرية لا بد ان تقترن بالنظام وبالمسؤولية . ثم إنها تحتاج الى تنمية روح التسامح والصبر على استمـاع الآراء المخـالفة وغرس روح الوحدة والانسجام بين أناس قد ينتمون الى قبـائل مختلفـة أو عناصر متعددة أو مذاهب دينية متضاربة . كل ذلك يتطلب تربية اخلاقية على مستوى رفيع ولا سيما فى نواحى الامانة والنزاهة (الاستقامة) وفى الغيرية وفى التآخى وفى الترفع عن الموبقات .

إن الاستقرار السياسى هو من الشروط الاساسية للبناء والنمو فى البلاد النامية اذ بـدون استقـرار سيـاسى لا رقى ولا تجـديد فى البنـاء المـادى والاجتماعى . نحن نسمع ونقرأ بين الفينة والاخرى عن ثـورات أو انقلابات هنا وهناك حتى ان كلمة « ثورة » قد أصبحت شعارا فى العديد من البـلاد النامية . نحن نعتقد بان الثورات او الانقلابات الدموية من الممكن تفاديها لو ان البلاد النامية حققت ثورة سلمية بيضاء وذلك بأن يتفق الحكام والمحكومون على احترام مستويات أخلاقية عالية فى النزاهة والغيرية والمحبة والعفـة وان يعهد الى التربية بأن تعمل على تحقيق هذه المستويات .

وفى الحياة الاجتماعية نجد البلاد النامية فى العديد من الحالات امـام محنة اخلاقية . فبينما كانت المجتمعات القديمة تتمسك بقواعد اخـلاقية صـارمة وتنظيم اجتماعى صلب وكان على الفرد اى يخضع لهذه القواعد الاخلاقية وهذه التنظيمات واذا بالتربية المستوردة وما يرافقها من وسائل الاعلام (سينما ، راديو ، تلفاز ، صحافة) تعمل على فك الارتباط بالنظم الاخـلاقية والتقـاليد الموروثة وتعوض عنها بالتراخى والتسيب باسـم الحرية وباسـم التجـديد

فالشعوب النامية قد تقفز من تطرف الى تطرف وهذا القفز السريع قد لا يخلو من الاخطار الاجتماعية والاخلاقية .

نحن نعتقد بان المجتمع لا يمكن ان يحتفظ بقوته وحيويته ما لم تتوفر حياة عائلية نظيفة وعدالة اجتماعية مقرونة بالمحبة والرحمة وجهدا اجتماعيا يرتفع على الانانية . أى أننا نجد ان السجايا الاخلاقية المكونة من النزاهة والغيرية والتآخي والعفة هي أساسية لتحقيق التطور الاجتماعي القوى الذى يؤمن الخير والسعادة للافراد وللجماعات .

إن للبلاد النامية نصيبها من أعمال الفوضى والعنف وانعدام البيئة الصحية النظيفة . وللتغلب على هذه العلل إنها تحتاج الى تربية اخلاقية مؤسسة على انضباط ايجابى (ذاتى) تبدأ من الطفولة المبكرة .

قبل نحو خمسين سنة عاش فى أميركا (الولايات المتحدة) مرب كبير هو الاستاذ (شاندلر باغلى) . لقد حذر الاستاذ باغلى المربين الاميريكيين من خطر التراخى فى الضبط على النسيج الاخلاقى للمجتمع الاميريكى . إن تحذيراته لم تؤخذ مأخذ الجد فى حينه ولكن المجتمع الامريكى تيقظ الى أهمية هذا الموضوع اليوم بعد تجارب مرة . فالشعوب النامية قد تحسن صنعا اذا أصبحت حذرة من البداية ولم تخىء فى التساهل والتراخى فى قضية التربية الاخلاقية . فالمجتمع الذى يتوخى الانسجام فى النمو يحتاج الى تربية تؤكد السجايا والقيم الاخلاقية فى كل مناحى الحياة .

— II —

مشكلة أخرى تجابه التربية فى البلاد النامية قد تكون أدهى من مشكلة الاهمال النسبى للتربية الاخلاقية وهى ذات ارتباط عضوى بالتربية الاخلاقية أعنى بها مشكلة التربية الدينية . فهذه تعانى من الاهمال النسبى ما تعانيه التربية الاخلاقية إن لم نقل أكثر . فبعض النظم التعليمية الاجنبية قد لا تعترف بوجود شىء فى الوجود لا يدخل ضمن الحس أو القياس .

وهناك نظم تعليمية أخرى تفصل الحياة الروحية للانسان عن الحياة الزمنية وهى ما يصطلح عليه عادة « بالعلمانية » أو (اللائكية) .

والحقيقة هى ان اسمى ما فى الانسان هى روحه . والانسان هو المخلوق الوحيد الذى نعرفه على هذه الكرة الارضية والذى فى وسعه أ نيرتفع بنفسه

فوق نفسه فينظر اليها ويرى الارتباط بينه وبين محيطه الاجتماعى ومحيطه الطبيعى وان يكتشف القوة الخلاقة والرابطة فى الكون تلك القوة التى تصدر عن قصد شامل يوجه الحياة والوجود كله الى الخير والحق والمحبة . ولا بد للشعوب النامية من أن تدرك استحالة وجود **اخلاق عالمية تبنى** الانسان فى كل مكان ما لم يتوفر وعى بالترابط بين انسان وآخر وبين الانسان والطبيعة وبين الانسان والكون وبين الانسان وخالق الكون . وما لم تتوفر هذه الاخلاق العالمية فلن تتحقق نهضة حقيقية فى الحقل العلمى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى .

فالانسان بدون إيمان يكون كمن يسافر فى بحار الحياة الهائجة من دون نور أو بوصلة . فالتربية الروحية (الدينية) هى أساس كل التربية وهذا ما نأمل أن يضعه قادة التعليم فى البلاد النامية نصب أعينهم .

— III —

بعد أن أكدنا على أهمية التربية الاخلاقية والتربية الدينية للبلاد النامية نشير الآن باختصار الى أهداف وأساليب التربية الاخلاقية :

(١) إن الهدف الاسمى للتربية الاخلاقية ينبغى ان يكون مساعدة الانسان على « معرفة نفسه » تطبيقا للمبدأ السقراطى المشهور « اعرف نفسك » . فالمطلوب من التربية ان تعرف الانسان بانه أكثر من كائن بيولوجى . لا شك فى أنه كائن بيولوجى ولكنه فوق ذلك هو كائن روحى أيضا . فالانسان قد يحمل فى داخله العديد من الاندفاعات العنيفة التى يشارك فيها الحيوان الوحشى . ولكنه فى الوقت نفسه إنه يحمل فى ذاته القابلية للسيطرة على هذه الاندفاعات وفى وسعه أن يوجهها نحو الخير . هذا وفى وسع التربية ان توجهه نحو الصراط المستقيم .

(2) ومن أهداف التربية الاخلاقية ان تساعد الفرد على الوعى والادراك بانه مرتبط ارتباطا عضويا برفاقه بنى الانسان وبمحيطه الطبيعى وبالكون وبخالق الكون .

(3) ومن أهداف التربية الاخلاقية أيضا ان تساعد الفرد على الادراك بأن الانسان ومحيطه الاجتماعى ومحيطه الطبيعى إنما يسير وفق قوانين وسنن طبيعية واجتماعية ونفسية . منها قوانين التغير والنمو والانحلال . وأن هذه القوانين فعالة فى الكون وأن واجب الانسان ان يكتشفها وأن يجعل حياته

وسلوكه منسجمة معها . والاخلاق قد تصبح عبارة عن التوافق والانسجام بين حياة الانسان وافعاله من جهة وبين القوانين الكونية طبيعية كانت أو اجتماعية أو اخلاقية من الجهة الاخرى .

(4) ومن أهداف التربية الاخلاقية ان تعلم الفرد بأن مؤسسى الاديان الكبرى والفلاسفة العظام والمعلمين الملهمين إنما جاءوا ليساعدو الانسان على التعرف على القوانين الكونية والعيش على مقتضاها . ومع أن معرفة الانسان لهذه القوانين وتطبيقه اياها قد تتطور وتنمو تبعا للنشوء الفكرى والحضارى إلا أن القوانين ذاتها وخالقها تدخل فى نطاق **المطلق** . فالقوانين التى يضعها الانسان هى عرضة للخطأ أو التغيير أما القوانين الالهية فانها **مطلقة** .

إن هذه النظرة الى الاخلاق توحد بين الناحية الاخلاقية والناحية الروحية من حياة الانسان وتربط بينهما ، كما انها توحد النظرة الاخلاقية والروحية فى الحياة مع النظرة العلمية . ولا بد من وحدة الروح والاخلاق والعلم فى حياة الانسان اذا أريد للعالم الثالث (البلاد النامية) ان تتغلب على المشاكل المعاصرة المشاكل الناجمة فى معظم الحالات عن الانفصال والانشطار بين العلم والدين والاخلاق . إن هذا التوحيد بين الايمان والعلم والاخلاق يضمن النمو الاخلاقى المستمر فى الحياة . كما انه يوحد بنى الانسان ويؤدى الى السلام والوفاق فى العالم .

وبعد أن يتقبل المربون فى البلاد النامية النظرة الرابطة والموحدة الى طبيعة الانسان والكون والقوانين الطبيعية والاخلاقية التى سنها خالق الكون يجدر بهم أن يقفوا هنيهة ليحللوا السلوك الاخلاقى ويتدبروا أساليب غرس السجايا الاخلاقية الطيبة فى أنفسهم وفى طلابهم .

على ضوء درسنا لعلم النفس نستطيع القول بأن السلوك الاخلاقى يتكون من العناصر النفسية التالية :

(أ) **موقف** يتطلب من الفرد سلوكا وذلك إما بدافع داخلى أو بتحريك خارجى . أشاهد شخصيا يحتاج الى مساعدة . وقد استجيب بالايجاب فأساعده وقد أتردد فلا أعمل شيئا .

أريد ركوب القطار أو الحافلة وأرى جمعا من الناس يريدون الركوب مثلى . فاما أن أتدافع وأشق طريقى فاسبق الغير فى الدخول أو أن أقف فى خط وانتظر دورى فى الركوب .

فالفعل الاخلاقى اذن يحدث فى « موقف » .

(ب) الفعل الاخلاقى يتطلب **معرفة** تمكن الفرد من التمييز بين الخير والشر وبين النافع والضار . وهذه المعرفة تشمل القيم الاخلاقية الاساسية التى يقرها المجتمع ومصدر هذه القيم قد يكون التقاليد والخبرات الاجتماعية أو التعاليم الدينية أو الابحاث العلمية .

(ج) الفعل الاخلاقى يحتوى على عنصر عاطفى يبرز فى شعور الانسان بالسرور عند عمل الخير والألم عند عمل الشر .

(د) باتحاد الناحية المعرفية مع الناحية العاطفية يتكون «الضمير الاخلاقى». وللضمير الاخلاقى هذا دور مهم فى توجيه سلوك الانسان .

(هـ) الفعل الاخلاقى يحتوى على عنصر **الارادة** أى الاختيار **الحر** لفعل الخير . وقد تعمدت ذكر صفة « الحر » للاختيار وذلك للتفريق بين الرجل الحر الذى يتمتع بارادته وبين العبد الذى لا ارادة له اذ أنه ينفذ ارادة سيده . هذا وإن افلاطون هو الذى قرر أن قابلية الاختيار الحر هى التى تميز بين الانسان الحر وبين العبد . إن هذه النقطة ذات أهمية خاصة فى التربية فى البلاد النامية التى حققت تحررها أخيرا من ربقة الاستعمار . فعلى التربية أن تتأكد من أن الجيل الصاعد يقدر نعمة الحرية ويتحمل ما تتطلبه الحرية من مسؤولية .

(و) إن العنصر المتوج للسلوك الاخلاقى هو « التنفيذ » تنفيذ ما يختاره المرء من أفعال الخير ، إذ بدون تنفيذ تبقى كل النوايا الحسنة بحكم العقيمة .

فالانسان ذو السلوك الاخلاقى الكريم هو الذى **يعمل** و **ينفذ** فعل الخير . إنه لا يتراجع ولا يجبن . فالرجال العظام إنما يعرفون بافعالهم العظيمة .

(ز) إن تكرار فعل الخير ينتج بالطبع **عادة** فعل الخير. فاذا كرر الفرد سلوك التأدب والتعاون مع الآخرين مثلا فهو يكون عادة الادب وعادة مساعدة الغير فيصبح بذلك من ذوى السجايا الكريمة .

هذا تحليل مبسط للسلوك الاخلاقى فما هو الدرس الذى يستفيده المربى من هذا التحليل عند تخطيطه برنامج التربية الاخلاقية ؟

إن أول وأهم درس يحصل عليه المربى هو أن التربية الاخلاقية ليست بالدرجة الاولى مسألة نظريات وحفظ دساتير انما هى **مسألة سلوك فى موقف** فالتربية الاخلاقية تحدث فى المعمل وفى ساحة اللعب وفى دار العبادة وفى الحافلة وفى القطار وفى المكتبة وفى الشارع وفى الحقل بل وفى كل مكان . فالمطلوب من المربى أن يستفيد من المواقف فيغرس السجايا الاخلاقية الكريمة فى سلوك الطلاب .

والدرس الثانى هو ضرورة تزويد الطالب بالمعرفة وبالقيم الاخلاقية وهذه تتحقق عن طريق المشاهدة والمشاركة والحوار ومطالعة الكتب الادبية والصحية والمدنية والدينية ، ومشاهدة الافلام السنمائية والروايات التى تصور مواقف اخلاقية تمارس فيها القيم الاخلاقية النبيلة . وقد يكون من المفيد ان يقوم المربى باعداد قائمة بالسجايا الاخلاقية التى يريد غرسها فى طلابه وقائمة أخرى بالسجايا التى يرغب فى تغييرها أو قلعها من سلوكهم . كما ان من المفيد أن يزود طلابه بأمثلة من حياة ابطال يمثلون السجايا الاخلاقية النبيلة فى حياتهم ابطال فى مجال الخدمة والتضحية لأمتهم ووطنهم أبطال فى مجال النزاهة والامانة والعفة والعفة والشرف أبطال فى الشجاعة والفروسية والمغامرة والاقتحام ، أبطال فى المثابرة على العمل والاتقان والابداع والنظافة وحسن الترتيب الخ ...

إن درس حياة هؤلاء الابطال يزود الطلاب بالمسميات الاخلاقية (المثل العليا) ذلك ا نتعليم المسميات أى (المثل العليا) هو عامل مهم من عوامل رفع المستوى الاخلاقى للمجتمع .

هذا ولا بد من التأكيد على ان التربية الاخلاقية لا تقتصر المسؤولية فيها على معلم معين يقوم بتدريس المادة بل انما هى مسؤولية جميع المعلمين وفى جميع الدروس وكل النشاطات المدرسية . فكل عضو من أعضاء الهيئة التعليمية هو معلم اخلاق . ومن الضرورى أن نعرف بأن السلوك الاخلاقى يمكن أن يكتسب عرضيا وبدون قصد كنتيجة ثانوية لأى درس من الدروس أو أى موقف من المواقف ، ففى درس الرياضيات مثلا قد يتعلم الطالب النظام والانسجام والدقة الى جانب تعلمه الرياضيات . وفى الاعمال اللاصفية (النشاط المدرسى) قد يتعلم الطالب المحافظة على المواعيد والتأدب فى مخاطبة الآخرين واحترام النظام والتعاون بين أفراد الفرقة والمبادأة الفردية الى غير ذلك من السجايا الاخلاقية .

وقد لقى هذا النوع من التعلم للسجايا الاخلاقية اهتماما فائقا لدى استاذنا المرحوم الدكتور وليم كلباترك وقد نعته « بالتعلم المرافق » اذ أنه يرافق الدروس أو النشاط المدرسى من دون قصد مباشرمن الاستاذ أحيانا .

لا حاجة للتأكيد على أهمية دور الاسرة فى التربية الاخلاقية فلا بد اذن من التعاون بين البيت والمدرسة للتأكد من صحة النمو الاخلاقى لدى الطفل . كما قد يكون من المفيد ان تنظم دورات دراسية ولقاءات مع الوالدين بغرض مساعدتهم على التعرف على مبادىء التربية الاخلاقية وأساليبها الناجعةليحسنوا تطبيقها على ابنائهم .

ومن المهام الاساسية للبيت وللمدرسة معا التأكد من ان الاطفال يتمتعون **برفقة صالحة** . فأثر الصديق فى تكوين اخلاق صديقه مبدأ تربوى قديم وهو مبدأ صحيح سليم . اذ السلوك السيء معد كالمرض المعدى . فالطفل الذى ابتلى بعادات سيئة وضارة لا يجوز أن يسمح له بأن يعدى رفاقه بها . فالمثل الفارسى المشهور « تفاحة واحدة فاسدة تفسد سلة من التفاح » يحتوى شيئا من الصحة فيما يتعلق بالتربية الاخلاقية .

وباختصار فان التربية التى تحتاج اليها البلاد النامية هى تلك التى تؤكد على القيم الاخلاقية والتى تطبق فى مواقف حياتية ومشاركة فعالة حرة ذلك مع توفر المثل العليا والقدوة الحسنة والاهتمام بالتعلم « المرافق » .

إن الإنسان المعاصر قد يجابه مأزقا اخلاقيا فى حياته الجديدة.فهو قد يتبع فلسفة التسيب واللامبالاة فى حياته الاخلاقية (القاء الحبل على الغارب) من دون ضبط ذاتى أو توجيه أخلاقى . ونتيجة ذلك قد تكون قيام دولة بوليسية تسيطر على الكثير من سلوكه وتصرفاته وتحرمه من اراداته الحرة اذ قد تفرض القيود على أفكاره وحركاته . ولتجنب هذا المازق تحتاج الشعوب النامية الى اعادة فحص الموقف الاخلاقى العام بقصد تهيئة جو صحيح ونقى لنمو الحياة الاخلاقية الكريمة والانفاق على القيم الاخلاقية الاساسية وفى مقدمتها : الامانة والغيرية والمحبة والطهارة .

— ٢٧ —

لقد تناولنا معالجة التربية الاخلاقية وكأنها شجرة فى وسعنا تقطيع اجزائها الظاهرة وثمارها . ولم نبحث بعد عن جذور الشجرة ولا عن التربة التى تنمو فيها وتستمد غذاءها منها.وهنا يأتى دور التربية الدينية . نحن نعتقد بأن كل تربية اخلاقية صلبة ينبغى أن تكون لها جذور دينية صحيحة وان تكون هناك وحدة وارتباط بين الاخلاق والايمان . فالذين يتحدثون عن الاخلاق العلمانية أو الزمنية عليهم أن يدركوا ان شجرتهم ستذبل وتموت اذا لم تسق ولم تغذ بالايمان بخالق الكون الاعظم . ففى بعض المجتمعات الحديثة بدأت شجرة الاخلاق بالذبول وانتابها المرض فعلا . إن الذين يتحدثون عن الاخلاق منفصلة عن الدين والايمان إنما يريدون الحصول على البيضة ناسين أهمية الوزة التى تضع لهم البيضة !

نحن نعرف جيدا الاعتراضات التى تثار ضد تدريس دين البلاد فى بعض البلاد الشرقية والغربية . ولكن هذه الاعتراضات لا تنطبق على الدين الصحيح اذا درس على الوجه الصحيح .

إن الاعتراضين المعروفين اللذين يثاران ضد تدريس الدين هما :

أولا : إن الدين يفرق بين ابناء الاديان المتعددة فى الوطن الـواحد . ومـا يحدث فى ايرلندة الشمالية ومآسى لبنان قد يذكران شـواهد على ذلـك . جوابنا ببساطة هو ان المشاكل والمآسى فى لبنان وفى ايرلندة الشمالية ليس مبعثها الدين والارجح ان مبعثها هو التقصير فى اتباع الدين الحق . والواقع هو ان الاستغلال السياسى للدين هو المسؤول عما يحدث فى هذين البلدين من مآس . فالدين الصحيح ينبغى ان يصبح قوة موحدة بين ابناء الشعب قوة تعمل من أجل العدالة والسلام والمحبة والاخاء بين بنى الانسان . أما التعصب الاعمى وأما الانقسامات فانها ليست من الدين الصحيح فى شىء بـل انهـا مناقضة للدين .

والحجة الثانية التى تورد فى الاعتراض على التعليم الدينى هى ان الـدين مناهض للعلم وهذه دعوى باطلة أساسا . ربما يوجد أشخاص يعترضون على بعض النظريات العلمية باسم الدين كما يوجد اشخاص ينكرون وجود الخالق الاعظم باسم العلم ؛ إن الدين الصحيح يدعونـا دومـا الى البحث عـن الحـق والحقيقة . والعلم الصحيح يسعى دوما باحثا وراء الحقيقة . ولما كانت الحقيقة واحدة فما على العلم والدين الا ان يلتقيا .

حين نتحدث عن التربية الروحية التى نستهدفها فى تدريس الدين نعنى بها أن فى وسع الانسان السوى ان يرتفع بذاته فوق ذاته فيرى الخطة العظمى فى خلق الكون . والانسان ذاته مع كل مخترعاته انمـا هـو جـزء من هـذا التخطيط العظيم .

إن ادراك هذا التخطيط العظيم فى الكون مع ما فيه من ترابط وتفاعل بين اجزاء الخليقة يزود الانسان بوحدة الهدف وبالهداية وبالدوافـع ليسيـر فى سبيل تحقيق الحق والخير ولينبهر بالجمال . ان التربية الدينيـة الصحيحـة ينبغى ان تعرف الانسان بمـوقعه الصحيـح فى هـذه الخليقـة وان تحملـه مسؤولياته ليقوم بما يترتب عليه من واجبات لقاء ما يتمتـع بـه من نعم لا تحصى ، كما ان على التربية الدينية ان تحض الانسان على البحث عن القوانين والاسرار العميقة التى أودعها خالق الكون فى الخليقة ، والتى جـاء الانبيـاء العظام والرسل لهدايتنا اليها . إن هذه القوانين الالهية تزود الانسان بالقيم الاخلاقية التى عليه ان يأخذ بها وأن يحترمها اذا شاء البقاء . كما انها تزوده

بالمثل العليا فى الحكمة والحق والعدالة والمحبة والرحمة والسلام وكل هذه من صفات الخالق الاعظم عز وجل .

هذا وان التربية الدينية الناجحة تزود الانسان بالاضافة الى ما مر من قيم اخلاقية ومثل عليا بالمحفزات وبالدوافع الاخلاقية لان يعمل الخير ويتجنب الشر . فالانسان المؤمن بحب الله يتقى الله . ولذلك فانه يسير فى الطريق المستقيم إنه يعلم بأن الله معه اينما كان.فالله فى ضميره ولا يفارقه، فالتربية الدينية الناجحة فى وسعها ان تحدث ثورة بيضاء فى المجتمع بحيث يمكن ان يعفى الحراس والشرطة من العديد من مهامهم ثم إن التربية الدينية الناجحة تزود الانسان بالقوة وبالدعم حين يضعف امام المصائب والمحن المفاجئة . فالانسان المؤمن يتجه ا لى الله طالبا العون والهداية . فيجد القوة والسلوى ، وفى حالات الفشل أو الضلالة فى وسع الانسان ان يرجع الى الله طالبا الرحمة والغفران فيغير ما بنفسه ويبدأ بحياة جديدة. فقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

- ٧ -

إن شعوب العالم فى كل انحاء المعمورة ومن ضمنهم شعوب الدول النامية هم فى حاجة الى تغيير ما بأنفسهم وهم يتوسلون بالتربية لاحداث هذا التغيير ولكن التربية لا تستطيع ان تحقق أهدافها ما لم تكن اخلاقية فى كل نواحيها ومساعيها . والاخلاق لا تزدهر ما لم تبن على أسس روحية صحيحة أسس الايمان بالله ! فلتحقيق السلام والوئام بين الشعوب تحتاج الانسانية الى **الايمان** بالله اى برب واحد كما أنها تحتاج الى ممارسة **الفضائل** الواحدة من أمانة ونزاهة وغيرية ومحبة وعفة ثم عليها أن تسعى لاكتساب العلم الصحيح وتمارس العمل الصالح . وهذه الاركان الاربعة الايمان بالله والاخلاق الفاضلة والعلم الصحيح والعمل الصالح هى ما تحتاجه شعوب العالم كافة الشعوب المتقدمة والشعو بالنامية على حد سواء . وكل ما نأمله ونرجوه هو ان تدرك البلاد النامية أهمية التربية الاخلاقية والدينية فى بناء نهضتها الحديثة فتعنى بها العناية المطلوبة وبذلك تقضى على ما يعتور نظمها التربوية من فجوات ومطبات !

د. محمد فاضل الجمالي
الجامعة التونسية

ذلك الحزن أيضا ..

شعر : يوسف رزوقه

1 ـ شعوبية :

قال في لهجة جاحد :
نحن بالفعل تجاوزنا الافق
قلت : للتاريخ شاهد
كنتم الصمت وكنا المنطلق ..

2 ـ زمن الحلزون :

طلع القمر العربي وحام على الشرفات
وتذكر صومعة هجرتها الاطيار
فبكى حتى اشتبك التاريخ مع النار
....
حجل القمر العربي فغاب عن الشرفات ..

* * *

لندق الابواب !
لندق الابواب !
فالليل جناح أبي هول مسبول
وطريق الفجر عذاب معسول ما زال يطول

ونكاد نرى الآتى
لولا زمن الحلزون الراكد فى الاعصاب ..

* * *

يا أرباب البترول الهارب منكم نحو مدمركم من غير طلوع صباح !
ما زال يعاودكم من خلف تخوم البحر نباح
فتبيعون الوجه العربى
والطقس جراح
وعلى طبق دموى
تقتسمون البسمات مع التمساح ...

3 ـ **لا ينقصنا إلا أفق واحد :**

إن جن الليل فهل نتهدم دونه أم ننقض عليه
ونعقل بالضحك الزلزالى جناحيه ؟

* * *

الموت يطالعنا من أزمنة الوجه الواحد
لا ينقصنا إلا أفق واحد :
أن نهدم برج الصمت ونغتال الوجه الباند ..

4 ـ **أفاجئكم وأبدأ من لدى الآتى :**

البيدر المنسى جزء من دمى
وللسنابل فى فمى
لغة تقول بكل أسباب العذاب ..

* * *

وأكون فى فرح من الافراح جسرا للعبور
وأكون فى حزن من الاحزان صمتا بائرا فى أرض بور
وأكون فى حين من الاحيان أسئلة تدور على محطات السراب ..

* * *

لا ، ليس وجهى مركزا للشائعات
لا ، ليس بدنى دائما من ذلك الزمن الذى لا شك فات
قدمى مضاد للضباب ،
وأنا أفاجئكم وأبدأ من لدى الآتى وهل يخفى برغم الليل آت ؟.
وأنا أبشركم بزوبعة تجىء وتفتح التاريخ بابا إثر باب ..

5 ـ **الصحراء تنتظر الرحيل الى الوطن :**

سنظل شيئا لا يشاء
سنظل أرضا تهمل المفتاح كى يلج الحصى متى يشاء
إنى + أنت حبيبتى العطشى = مشتلا للعطر شاء

* * *

النهر فى عينيك أطبق ضفتيه
فضج فى الرئتين
نهر غير ذى ماء ، يقبض الكفر نارا من يديه . .
وأنا مع اللحظات
كالمسبوت فى نعش الصدى المنسى أنتظر الرحيل
فمن زمان مستحيل لم أشارك بالصهيل
ومن زمان مستحيل ، هذه الصحراء تنتظر الرحيل
الى الوطن ...

* * *

سأضج كى تجد التى ستجىء لونا أو مذاقا للضجيج
وإننى سافرت فى الحمى ..
وليس كراهة للصمت ،
إن قررت تصريف الرياح
وإن أتى فى صيغة الجمع الضجيج ...
فسأرتمى فى الصمت كى يتمخض الوجع الكبير

فارخبيل الصمت مرسى الضوء فى ليلى المغير ..

6 ـ رؤيـة :

وطنى ليس صهيلا فى الصحارى القفر
أو صحراء فى مجرى الصهيل ..
إنه رمانة حمراء فى ادراك تلميذ يروم المستحيل .

7 ـ ونقول أيضا ، طالت ليالى الحلم :

أهلا وسهلا بالذى يأتى مع النهر الجرىء
فينتهى بزمانه الزمن الردىء
ويبدأ الوطن المضىء
وتمحى بخطاه
مرحلة البكاء المر والموت البطىء ..

* * *

ونقول أيضا
مرحبا بالماء يفتح أرضنا فتحا مبينا
مرحبا بالشمس تنهض كى تدين الحاملينا
مرحبا بالحزن يترك فى مطاوى الذاكره
جرحا يرى فى الضوء نافذة وفى الاسلام دينا ..
ونقول أيضا
والسماء كما نرى :
سحب ملبدة تسير القهقرى ،،
طالت ليالى الحلم
والمنفى هو المنفى
وتبقى هذه السمراء تنتظر الصباح
وتظل مثل شقائق النعمان تصفعها الرياح

أين العروس ؟
فكل ما تخشاه
أن ينسى الالاه
خطى فتاة حائرة ...

* * *

أهلا وسهلا بالذى فى لحظة الحمى يجىء
فينجلى بطلوعه الليل القمىء
ونشهد العرس الكبير ...

8 ـ إشعــار :

شــأ
يا رجلا كالخروع يمتص الماء
ولا يعبــأ
وكن الارض المعطاء
وكن الملجأ ،
تؤوى الغرباء
وكن المرفأ
تحمى سفن الوطن العاشق ..

* * *

ع لماذا هذا الضوء يضىء
وكن رجلا يدعى فيجىء
ليقطع فى الابان يد السارق ..

* * *

انهض من نومك يا الرجل الاسمر !
وأضف عينين الى عينيك
وكن لهبا أخضر
يتفجر كالنهر الدافق ...

9 ـ وتدق طبول والقمر الوردى على زندى :

وتدق نواقيس الارق القهرى
ويقمعنى قمر ، قروى القلب وقمحى القسمات ..

سيطلع قبل أفول الليل
ويقتل ليلا طال
ويلغى إلحادا ما زال
ويخلد فى خلدى لحظات ...

* * *

وأطل فقلت : تعال
فتسلل مثل الظل وقال :
يا وجها أرهقنى دهرا !
هبنى هرما نتزهد فيه
ونهرب ، إن هاج الهذيان ، اليه
من هول التيه ...
وكمن يكمى كمدا
بكيت وكنت فتى صمدا
فبكى قمرى لما فتح الصندوق
ورأى وجهى المحروق ..

* * *

وتدق طبول والقمر والوردى على زندى
وأرى المدن الزرقاء
تسائل عنى أرصفة الغرباء
وأكون بحق وغدا لو أتجاهل قافلة البسطاء
وأرحل عن قمر هو أغلى ما عندى ...

10 ـ ذلك الحزن أيضا :

سيطرق بابى ويدخل بيتى
ويغلق مجرى الحوار
ويفتح صمتى ..
أنا مستطيع بحزنى المضىء
وأعرف من أين يبدأ أو ينتهى الاحتلال
فلى فى عبودية الحزن ما للمسافر من طيبات حلال
ولى فى عبودية الحزن ما للرحى من سنابل ..
ولا ضير فى ذلك الحزن عند المجىء

فانى رأيت الشذى راسفا فى السلاسل ...

* * *

وصديقى :
قال بالعينين آه
ومشى يبكى وحيدا
ثم فى الآفاق تاه ...

* * *

لم يكن أرضا مواتا أو متاهات خواء
لم يكن جامود صخر يأخذ الماء على أنه ماء
كان بالضبط سماء
وله تركع بين الضيق والضيق جباه
وهو ينهد بكاء
كلما اغتيل الاله ..

* * *

ليس مفروضا عليكم
أن تهابوه وتهدوه هبات
إنما المطلوب منكم
أن تجروه
الى أعماقكم وانتظروا ما هو آت ..
فهو قد عاش على الرغم من الظلم وحراس الضغينه
وهو قد أبطل فى ايران نفوذ الشاه واجتث الجذاذات اللعينه
وهو قد يأتى وفى عينيه مشروع مدينه ...

* * *

اختفى الشيخ وفى صدره : برق ورعود
وغدا سوف يعود
حاملا بين جناحيه : مناشير خروج وجوازات سفر
ومتى فى رأسه دقت نواقيس الخطر
نتف الريش وأهوى بالمطر ...

يوسف رزوقة

1979 – 8 – 10

أدب الطفولة ...

بقلم: علي سايح

يا أيها الاطفال
من المحيط للخليج أنتم
سنابل الآمال ،
وأنتم الجيل الذى سيكسر الاغلال
ويقتل الأفيون فى رؤوسنا
ويقتل الخيال ،

– نزار قباني –

جيل المستقبل:

العناية بالطفولة هى العناية بمستقبل الانسانية وضمان لانسانية الغد . والاهتمام بالطفل لا حصر لعناصره وفروعه اذا رمنا تكوين طفل متكامل الشخصية ، متزن ، عامل ، ومتفاعل مع محيطه مندمج فيه ... ولا يتم ذلك التكامل فى الشخصية ولا هذا التفاعل مع المحيط ما لم تتوفر للطفل ظروف معيشة طيبة ماديا ومعنويا ومناخ تربوى سليم ...

ولنعش لحظات مع بعض الاحصائيات التى تتناقلها وسائل الاعلام لنتبين مدى الاهمال الذى يشهده الاطفال اليوم من قبل كل الدول وكل المؤسسات المحلية والعالمية .

تقول مصادر الامم المتحدة ان 400 مليون طفل فى أنحاء العالم ينقصهم العلاج الصحى وأن 300 مليون طفل يعيشون بدون مياه نظيفة صالحة للشراب وأن ما يزيد عن 350 مليون طفل فى الدول النامية يعانون من آفات مختلفة ...

ويقول مسؤول فى منظمة « اليونيسيف » UNICEF أن 550 **مليون طفل** فى سن المرحلة الابتدائية لم تتوفر لهم فرص الدراسة ، ومعظم **هؤلاء الاطفال** هم من سكان الدول النامية على أن الكثير منهم يعيشون فى مناطق بائسة فى الدول الغربية الصناعية .

كما تشير الاحصائيات الى أن 54 مليون طفل يعملون فى ظروف سيئة فى مختلف مجالات العمل والانتاج فى العالم وحوالى 42 مليـون ممـن هـم دون السابعة من العمر بدون أجر .

ومن ناحية أخرى فانه يوجد أكثر من 800 مليون أمـى فى مختلف أنحـاء العالم وأن نسبة الاطفال بين هذا العدد تشكل الثلث وربما تجـاوزت هـذه النسبـة .

يا للهول !

أرقام تبعث على الفزع . والحيرة . والقلق . وتثير فى نفوسنـا عشـرات الاسئلة عن مصير عالم تعيش فيه هذه الملايين من الاطفـال عيشـة البـؤس والفاقة عيشة النكد والحرمان ...

طفولة جائعة . عارية . ممزقة . تائهة . مشوهة . محرومة من أبسط قواعد الصحة والعيش الكريم ... مهضومة الحقوق . انهم جيل المستقبل . أى جيل وأى مستقبل هذا الذى ينتظر العالم بهذه الملايين من الطفولة المشردة البائسة الجـاهلة ؟؟

ولا نتحدث عن الملايين الاخرى من الاطفال فى فلسطين فى لبنان فى افريقيا فى آسيا وفى بقاع كثيرة من العالم المجنون تفرض عليهم الحرب فرضا دون وعى منهم بما يجـرى من حـولهم ... فيقاسون شـر الويـلات ويتشـردون ويتعذبون ولا أحد يقرأ لهم حسابا ...

جنون . قسوة . شراسة . اجرام .

ولعل هذا من أهم الاسباب التى دعت منظمة الامم المتحـدة والمـؤسسات التابعة لها الى جعل هذا العام عام تسع وسبعين وتسعمائة وألف عام الطفل.. لتوجيه عناية الدول والمجتمعات والمؤسسات والمجموعات والافراد الى ما لهذا الكائن الصغير من حقوق على أسرته وعلى مجتمعه ...

اذ أن الطفل « من ناحية أولى جدير بأن يجنبه مجتمعه كل عوائق النمو السوى الحسى والمعنوى ، ضمانا لحاضره ، وضمانا ـ بالخصوص ـ لمستقبله ومستقبل المجتمع نفسه من خلاله . ثم هو ـ من ناحية أخرى ـ جدير بأن يضحى فى سبيله ، ويبذل له من الحقوق ما يبذل لسواه أو أكثر ، تهيئة له كى يؤدى للمجتمع ما عليه من الواجبات عندما يصبح قادرا على ذلك ، بفضل مواهبه الذاتية ، وبفضل العناية به حسيا ومعنويا » (1) .

وقد جاء فى ديباجة (اعلان حقوق الطفل) :

« بما أن الطفل ـ بسبب قصوره من ناحية النضج البدنى والعقلى ـ فى حاجة الى أسباب خاصة للوقاية والرعاية ، تشمل الحماية الشرعية اللازمة ، قبل ولادته وبعدها ... فان الجمعية العمومية تصدر هذا (الاعلان لحقوق الطفل) بهدف جعل الطفل ينعم بطفولة هنيئة ، ويتمتع بالحقوق والحريات الواردة فى الاعلان لخيره ولصالح المجتمع ... » (2) .

وفيما يلى بعض بنود الاعلان :

« + يجب أن يتمتع الطفل بكافة الحقوق الواردة فى هذا الاعلان .

+ يجب أن يكون للطفل حق التمتع بوقاية خاصة ، وان تتاح له الفرص والوسائل ... لكى ينشأ ـ من النواحى البدنية والروحية والاجتماعية ـ على غرار طبيعى ، وفى ظروف تتسم بالحرية والكرامة ..

+ يجب أن يتاح للطفل التمتع بمزايا الامن الاجتماعى .. وينبغى أن يكون للطفل الحق فى التغذية الكافية ، والمأوى ، والرياضة ، والعناية الطبية .

+ لكى تكون للطفل شخصية كاملة متناسقة ، يجب أن يحظى ـ قدر الامكان ـ بالمحبة والتفهم .

+ للطفل الحق فى الحصول على وسائل التعليم الاجبارى المجانى ، على الاقل فى المرحلة الابتدائية .. ومن الواجب أن تتاح للطفل فرصة للترفيه عن نفسه باللعب والرياضة .

---

(1) البشير العريبى ـ جريدة العمل « حقوق الاطفال » .
(2) نفس المصدر .

+ يجب ضمان الوقاية للطفل من كافة ضروب الاهمال والقسوة والاستغلال .. كما يجب أن لا يسمح له – بأى حال من الاحوال – أن يتولى حرفة أو عملا قد يضر بصحته ، أو يعرقل وسائل تعليمه ، أو يعترض طرق نموه ، من الناحية البدنية والخلقية أو العقلية ... » .

هل تتوفق المؤسسات الدولية فى هذه السنة الى توعية الدول والمجتمعات المختلفة بأهمية العناية بالطفولة ورعايتها وتوفير الظروف الملائمة لتكوينها التكوين السليم حتى نضمن أوفر حظوظ النجاح والسلامة لمستقبل الانسانية ؟!

هذا ما نرجوه ونعتقد انه فى الامكان متى حصل الوعى وتضافرت الجهود للقيام بعمل موحد فى هذا الشأن..كما نرجو أن تكون هذه السنة نقطة البداية واشارة الانطلاق لاعمال كبيرة وجهود جبارة تتوالى مع السنين فى سبيل الرفع من مستوى الاهتمام والوعى بمشاكل الطفولة والسعى لايجاد الحلول الملائمة وتخليص الاطفال مما هم عليه الآن من حرمان وبؤس وظلم ...

ان عالم الطفولة هو عالم البراءة فى أنقى صورها وعالم الجمال فى أروع مظاهره .

والطفل هو تلك النبتة الصغيرة اليانعة التى ستنمو وتكبر لتصبح شجرة المستقبل التى تنضج عطاء . علينا فى هذا العام وفيما يليه من الاعوام أن نوجه عنايتنا لهذه النبتة ونرعاها بالحب ، بالعطف ، بالحنان حتى تنمو فى ظروف طيبة فتضفى على حياتنا شيئا من البهجة وتعطينا من الثمار ما يغير وجه العالم الحزين ...

ستكبر أحلام الاطفال وآمالهم فى عامنا هذا فعلينا جميعا أن لا نخيب ظنهم فينا .

هم ثروة المستقبل ، وهم العطاء المنتظر ، فيهم المواهب العظيمة ، وفيهم الطاقات الخلاقة التى ستبنى الغد الافضل . فلنهتم بهم أكثر ولنعطهم شيئا وقتنا ولنعمل متضامنين على أن تكون حياتهم مريحة جميلة .

ادب الطفولة :

هل نتوقف هنا بعد أن استعرضنا هذه الصفحات السوداء ؟

هل نكتفى بهذا القدر من الحديث ونطوى أوراقنا ؟

وما جدوى حديثنا عن الادب والكتابة وقد سمعنا ما سمعنا ؟

أم نعتبر أن حديثنا هذا هو من باب التوعية لانفسنا وللآخرين بجانب هام من جوانب تكوين الطفل اذا أوليناه العناية الكافية استطعنا أن نساهم بقسط محترم فى تركيز شخصية الطفل ومساعدته على مواجهة الحياة والاندماج فيها دون خوف من أن تتلاعب به الرياح وتعصف به العواصف .

من هنا تبرز أهمية أدب الطفولة ويتأكد الحديث عنه .

والكتابة للاطفال جزء من الادب الذى يمكن أ نيشمل مجالات عديدة تدخل فى تهذيب الاطفال وتثقيفهم . نذكر منها على سبيل المثال البـرامج الاذاعيـة والتلفزية الموجهة للاطفال ـ السينما ـ المسرح ـ الاناشيد ـ الرسم ...

والمجال لا يسمح لنا بالحديث عن كل هذه الانشطة التى تقدم حاليا للاطفال لذلك سنقتصر على الحديث عن كتب الاطفال .

ماذا يطالع أطفالنا اليوم ؟

انهم يطالعون مجلات وكتبا بالمدرسة بالبيت أو بالمكتبات العمومية الخاصة بالاطفال . أما المدرسة فتحاول ادخال عنصر القراءة بصفة علمية فى برامجها وتسعى الى ترغيب التلاميذ فى المطالعة بأساليب بيداغـوجية سليمـة تحبب للطفل الكتاب وتجعل منه قارئا واعيا بما يقرأ وناقدا جريئا للاثر الذى يقرؤه.

أما البيت فما يزال لحد الآن لا يولى اهتماما بهذا الموضوع ولا يوفر ـ الا فى القليل النادر ـ ميزانية ولو بسيطة تخصص لاقتناء بعض الكتب والمجلات.

وأما مكتبات الاطفال العمومية فهى قليلة العدد ولا توجد الا فى بعض المدن الكبيـرة .

هذا واننا نستطيع تصنيف الكتب الموجودة حاليا بين يدى الاطفـال الى عدة أصناف أهمها :

1) ـ **الكتب المصرية :** وهى فى غالبها كتب قديمة تربت عليها أجيال من الاطفال العرب لغتها سليمة لكنها تتجاوز بكثير الرصيـد اللغـوى لاطفـال اليوم .. فيها الكثير من الاساطير والكثير من المغازى التى لم تعد متماشية مع عصرنا ... « وان القارىء لقصص كامل كيلانى ومحمد عطية الابراشى ومحمد سعيد العريان وغيرهم يجد هذه النواقص وقد تمثلت بقـوة ، ولكن يجب الا ننسى انهم كانوا الرواد فى مجالهم ، والمجـرب الاول لا بـد أن يكـون كثير

الاخطاء . ويشمخ كامل الكيلاني بمكتبة كبيرة قائمة بذاتها عمل لها بحب واخلاص ، ندر أن تتوفر فى نفس غيره ، فكان بحق رائد قصة الطفل العربى » (3) .

على أن بعض الكتب الحديثة تحاول أن تكون أكثر جاذبية وأكثر اهتماما ببعض النواحى التى يرغب فيها الاطفال .

2) ـ **الكتب اللبنانية :** تمتاز باخراجها الجذاب وبصورها الكثيرة والجميلة لكن محتواها لا يمت بأى صلة لمجتمعنا العربى الاسلامى اذ هى ـ فى الاغلبية الساحقة منها ـ كتب غريبة مترجمة خاصة عن الفرنسية والانقليزية .

3) ـ **الكتب الفرنسية :** ما تزال طاغية من حيث العدد فى مكتباتنا أكثرها لا يتماشى مع شخصيتنا وحضارتنا فى محتواها وفيما تطرحه من قضايا .. فى الكثير منها تشتم رائحة الروح الاستعمارية والعنصرية ...

لكن جانبا لا بأس به من هذه الكتب يتميز بقيمة تربوية أكيدة ويهتم بمشاغل أطفال اليوم وبتنمية مواهبهم فى مجالات عديدة .

4) ـ **الكتب التونسية :** لا شك أن هذا القطاع فى بلادنا يشهد تطورا ملموسا فحركة النشر دائبة وعدد الكتب فى تزايد مستمر لا يكاد يمر أسبوع دون أن نرى كتابا أو كتبا للاطفال تصدر عن هذا الناشر أو ذاك ... غير أن هذه الكتب ـ للاسف الشديد ـ تبقى فى أغلبها بعيدة عن المنهاج العام الذى تتبعه البرامج التربوية فى بلادنا وفاقدة لاهم سمات التربية الاساسية . وبعيدة عن مشاغل الطفل ومشاكله وآلامه وآماله ...

هى كتب مترجمة وأحيانا بغير نزاهة بحيث يتغير العنوان وتتغير الاسماء وبعض المواقف وهى قصص تعتمد الخيال لا ذلك الخيال العلمى الذى يساهم فى فتح آفاق الطفل وتنمية مواهبه وانما خيالا مريضا فيه من العقد والازمات ما شاء الله .

وهى خرافية عديمة الفائدة . « انها خرافات لا تحمل قيما ولا ارهاصات من شأنها أن تفيد الطفل وان تقدم له مادة تربوية دسمة ... فهى (أى الخرافات) تعمق فيه فحسب هوة البعد عن الحاضر والتطلع الى المستقبل وتزرع فى نفسه

(3) بيان الصفدى ـ آفاق عربية ، العدد 6 ، السنة الرابعة ، أفريل 1979 . فنون الكتابة الادبية للاطفال .

مفاهيم غالطة عن الخوف والشجاعة والتضحية وحتى عن بعض المعالم الجغرافية والتاريخية والعلمية » (4) .

على أن هناك بعض الكتب الجيدة خاصة تلك التى كتبها مربـون عـاشروا الاطفال طويلا وماسوا ميدان التربية عن كثب ـ وانك لتجد فيها الكثير من اليسر والمتعة فى لغتها السليمة وفى محتواها البناء . لذا فالدعوة موجهة الى كل المربين ـ قبل غيرهم ـ الذين يمتلكون موهبة الكتابة الى الاهتمام جديـا بهذا القطاع الحيوى حتى يكون الكتاب الموجه للطفل قريبا منه .. فيه أحلامه وآماله .. فيه حياته الحاضرة بهدوئها وصخبهـا بجمالهـا وقبحهـا .. وفيـه تصورات لمستقبله ...

بهذا نستطيع أن نخلق بحق أدبا للطفولة ... ونسد المنـافذ على الغربـاء والتجار ... اذ ان « قصة الطفل ليست كتابة طارئة أو هامشية بل هى عمل أدبى له مواصفات أى ابداع أدبى آخر ، تطلب منه الدقة اللغوية والبراعة فى الاسلوب والارضية الثابتة للحدث » (5) .

وأعتقد أن من يتطفل اليوم على الكتابة للاطفال سيجد نفسـه بعـد حين مرفوضا من طرف الاطفال أنفسهم الذين أصبحوا أكثر وعيا مما يتصور هؤلاء المتطفلون وأصبحوا ـ بنضجهم ـ يميزون بسهولة بين الغث والسمين . بين ما هو غريب عنهم لا يمت الى عالمهم بصلة وبين ما يفيدهم ويسليهـم ويفتـح لهم مجالات من الحوار والخلق والابتكا ر.

محتـوى قصـة الاطفـال :

كل هذا الحديث يجعلنا ندور حول نقطة معينة ونطرح سؤالا هاما وهو ماذا نريد من قصة الاطفال أن تقدم ؟ أو ما هو المحتوى الذى يجب أن يتوفـر فى قصص الاطفال ؟

« يكاد يجمع المختصون أن العوامل التى تساعد على دفع الطفل للتكامل والتوازن فى الحياة هى :

ـ تعلم المهارات الجسمية .

---

(4) بلادى الثقافية ـ 9 ـ 4 ـ 1979 .
(5) بيان الصفدى ـ آفاق عربية .

ـ اكتساب اتجاه سليم نحو الذات .
ـ تعلم الدور الذى يليق بالجنس الذى ينتمى اليه الفرد .
ـ تعلم المهارات اللازمة لشؤون الحياة اليومية .
ـ تكوين الضمير ومعايير الاخلاق والقيم .
ـ تعلم التعامل مع رفاق السن .
ـ تنمية حسن التخييل لديه » (6) .

كل هذه العوامل تساعد على تكامل شخصية الطفل ودعم توازنه فى الحياة. فعلينا اذن ان نضعها نصب أعيننا كلما فكرنا أن نقدم انتاجا ما للاطفال ... كما أن للطفل حاجيات ضرورية متأكدة على القصة ا نتسعى لتوفيرها :

1 ـ الشعور بالامن والطمأنينة يتوفر هذا فى نوع من القصص ذات المحتوى العاطفى الانسانى التى تطمئن الضعيف مثلا اذا كان فى مواجهة القوى المتجبر (الاسد والفار) ... هذا النوع من القصص يكون معزيا للطفـل الضعيف أو الفقيـر ...

2 ـ السفر على أجنحة الخيال ـ كما فى الاحلام ـ والذهاب بعيدا .. بعيدا عن المحيط الذى يعيش فيه الطفل وهذا نوع من الهروب يكون الطفل أحيانـا فى حاجة أكيدة اليه .

3 ـ اشباع الحاجة الى مزيد المعرفة وذلك فى نوع من القصص التى تضيف الجديد الى معلومات الطفل حول موضوع من المواضيع .

4 ـ الحديث عن الحياة اليومية التى تشبه الحياة التى يحياها الطفل فى بيته (وخاصة بالنسبة للاطفال الصغار) .

5 ـ الحديث عن الحيوانات . والاطفال يحبون الحيوانات كثيرا وخاصة الاليفة منها : العصفور ـ القط ـ الكلب ـ النملة ـ الحلزون ...

قصة الحصان فوريا التى عرضتها التلفزيون ، لماذا أحبها الاطفال ؟ (وبين قوسين حتى الكبار أحبوها) لان فوريا من الحيوانات الاليفة الجميلة الطيبة التى استطاعت أن تأسر القلوب بعطفها على الضعفاء واغاثتها للمنكوبين وشدتها وقسوتها على المتجبرين الظالمين أصحاب الافعال الدنيئة .

---

(6) نفس المصدر .

6 ــ المغامرة : كثيرا ما تحتوى القصة على مغامرة أو مجموعة من المغامرات أو من الصعوبات التى تعترض الابطال أو أحدهم .

ويستحسن فى هذا النوع من القصص أن تكون النهاية مطمئنة وسعيدة . فالاطفال غالبا ما يتمثلون بشخصيات القصص التى يقرأونها أو يشاهدونها ولهذا فعلينا أن نحافظ على شعورهم بالامن والسعادة .

7 ــ المواقف المثيرة : يقول الدكتور Myriam David : « أغلب الاطفال يحبون السحر الذى يحول الشقاء الى سعادة ويقلب الانسان حيوانا . ويحرك اللعب ، ويسمح للساحرات بالقيام بأعمال شيطـانية ... وما على الحوريـات والابطال الا أن ينتصروا » (7) .

ونشير هنا الى أن هناك عددا كبيرا من الاطفال العصبيين والخوافين وانه يمكننا بهذا النوع من الادب أن نثير أعصابهم أكثر ونخيفهم أكثر خاصة اذا كانوا فى سن لا تسمح لهم بالتمييز ما بين الخيال والحقيقة » . لـذا وجب أن نتجنب هذا النوع من القصص المشحونة بالمواقف المثيرة المرعبة لما لها من تأثير سيء على الطفل وخاصة فى سن معينة .

ولعل البعض يلاحظ هنا أن العديد من الاطفال يحبون مثل هـذه المـواقف المثيرة ويرغبون فى قراءتها أو مشاهدتها فلماذا نحرمهم منها ؟

للاجابة نقول أنه علينا أن ننتبه ونفرق بين ما ترغب فيه الاغلبية من الاطفال المتزنين فى تكوينهم الذهنى والاجتماعى وبين ما يبحث عنـه الآخـرون من مغامرات مثيرة تبعث الرعب فى النفوس وتعصف بالقلوب ويكون لها أسـوأ الاثر على أطفالنا سواء كانوا عاديين أو غير عاديين .

ولا شك فى أن صورة من الصور المثيرة أو مشهدا من المشاهد المرعبة تبقى ــ ولمدة طويلة ــ عالقة بأذهاننا تتصدر من حين الى آخر الصفحـة الاولى من رؤانا وخيالاتنا (تذكروا مسلسـل : Angoisse) وهذا يجرنا للحديث عن الصورة التى ترافق النص المقدم للاطفال نظرا لما للصورة ــ كما هـو الشـأن بالنسبة للكلمة ــ من تأثير على الطفل .. هذه الصورة يجب أن تكون معبـرة ــ بدون افراط ولا تفريط ــ وان تكون واضحة ، بسيطة ، سهلـة الفهـم ، مطمئنة ومطابقة لنص القصة .

---

(7) Myriam David كتاب « الطفل من سنتين الى ست سنوات » .

اما عن اللغة التى نكتب بها للاطفال فهى لغة بسيطة نتحاشى فيها الالفاظ الغريبة ولا نستعمل الا كلمات من رصيد الاطفال اللغوى . ومن المستحسن .

« ـ استخدام الافعال فى الجملة حتى يتعود الطفل ع لىدلالة الحركة الزمنية فى اللغة » (8) .

ـ استعمال أسلوب مشوق .

ـ « الابتعاد عن المجازات والاستعارات والكنايات ما أمكن » (9) .

خـاتمـة :

وأنا أكتب هذه الملاحظات عن محتوى قصة الاطفال جالت فى نفسى بعض الخواطر وبعض الاسئلة الملحة . قلت : لو حدثنا أطفالنا عما يجرى فى العالم من حولهم ؟

لو حدثناهم عن أطفال العالم وعن كيفية عيشهم ودراستهم ؟

منذ أسبوع رأيت فى التلفزيون أطفالا من أمريكا يلعبون... بالكمبيوتر . الدماغ الالكترونى لعبتهم وبماذا يلعب أطفالنا ؟

ثم لو حدثنا أطفالنا عما يقاسيه عدد كبير من أطفال العالم ـ وخاصة أطفال العالم الثالث الجياع ـ العراة ؟

لو حدثناهم عن الملايين الذين يموتون كل يوم .. يقتلهم الجـوع ، يقتلهم المرض ، وتقتلهم الحروب ؟

لو حدثنا أطفالنا عن كل هذا .. لجعلنا منهم أطفالا واعين بحاضرهم وبمـا ينتظرهم فى مستقبل حياتهم ..

لو حدثناهم عن كل هذا لاستطاعوا ـ ربما ـ أن يغيـروا وجـه العـالم ، ولكانوا أكثر جدية وأكثر وعيا مما هم عليه الآن .

لماذا لا يكون هذا أدبهم أو ع لىالاقل جزءا مما يقرؤون ؟

على ساسى

---

(8) بيان الصفدى ـ آفاق عربية .
(9) نفس المصدر .

عن الراحة .. والفأس .. والأهزوجة ..

شعر : عبد الرزاق الفرجية

قبل انطلاق الباخره
نحو انتشار الحزن فى مدن الترقب .
قبل انطلاق القاطره
بحثا عن البترول فى زمن التصلب .
غنى دم الانسان للأفق البعيد
حيث انطلاق الصوت ملء الحنجره ،
حيث اندلاع لظى السواعد والصدور الدافئه
كنت الذى ما كان لكن من جديد
سأعود للترحال ، للدرب العسير
لجزائر الفرح المرفرف فوق خلجان النهود العاريه

* * *

كفى على عينى ، ورأسى فى جراحات تفور ،
وساعدى أبدا يثور ، شرائعا يلقى أمام
لهاث من زرعوا التوعد فى حقول الوحشة ،
الآثام ، هذى راحة الطفل الرهيب لكم
« وساما » والأهازيج الندية حين تبعث
فى الغروب وفى الشروق لكم « وساما » واجترار
الفأس للعمل الرتيب لكم « وساما » ، فانظروا ،

شدوا بنادقكم الى الصدر الكلوم ، فلا سلام بلا دماء

* * *

الماء من بين الشقوق دما سيخرج ليس يعصمه الزمان
عرق الجباه دما سيخرج ليس تعصمه القيان ولا أمان

* * *

انظر هنا : بشع دم الانسان فى « البيغال »

* * *

بيتى ، حصيرى ، ساعدى ، صوتى ،
ومن عرف المذاق يقول : مر

* * *

قروية أحببتها ، تجتث فى البستان أعشابا
لتبذر عريها قمحا وظلا ، صحت : يا حبى . فأسدلت
الضفائر وانحنت ، نظرت الى فصحت : يا حبى .
رفعت يدى ـ يدى مجروحة كذراع أهلى ـ زائغ
العينين كنت وحربتى ترنو وشمس الله
تملأ ساعدى نورا فصحت ، بحثت ، لا حبى
ولا شمسى وحتى حربتى سرقت فكيف
يعود ، كيف يعود للزند الأمان ؟ ؟

* * *

كل المسالك وعرة
والزحف للموت اشتهاء

* * *

جسدى مزار للجياع ، ومعطفى وجه ترجل
باحثا عن بذرة الخلق الجديد ، وزفرتى تمتد
للمستنكرين على ذرى الطمى العتى سفينة ،
رعبا يقود الليل للمدن اليباب .

عبد الرزاق الفريخه

كلمات منثورة ...

بقلم : البشير المجدوب

اليد أخت الدماغ وشريكته فكما أننا **نعمل** بأدمغتنا كذلك نحن **نفكر** بأيدينا .

⁂

نظرة الى طفلك الصغير يمرح ويلعب ملء عينيه السعادة والطمأنينة يكاد يطير رغبة جياشة في الحياة وقد فرض **وجوده على الكون إرادة** لا تفتر ولا تنثنى ... لمحة واحدة اليه واذا **أنت كأنك** تولد ثانيا ، قد تبدد ما في نفسك من يأس وتشاؤم **إزاء مصير** الانسان ، كأن قد انفتحت لك محجة التاريخ بكرا لم تطرق بعد ، تدعوك توا الى الصراع . وتغريك بالخلق والصمود !

⁂

روعة الخطيئة وسحر سلطانها القاهر العنيد لولا إحساس بالسخف والتفاهة حتى كأن النفس يلفظ بعضها بعضا تقززا وغثيانا !!

⁂

هل أحسن من الفن لقاحا للفن ؟!

⁂

شد ما يضحكني هؤلاء الذين يجردون الفن من كل هدف وغاية ؛ والفن بعض من غاياته أن ينصب لنا روائعه مثلا حية .. قمما باهرة لا تني النفس تتطلع اليها عشقا للكمال وتحقيقا للمستحيل .

⁂

العين .. تلك الحاسة الطاغية الجبارة لا تكاد تغيب عن أجل نشاط الانسان وأصغره ، فبها نذوق ونأكل لا فقط بأفواهنا وأمعدتنا ، وبها نابس ونتأنق لا بأصابعنا وأيدينا ، وبها نجس ونلمس ونلاطف ونداعب ؛ بل هي تتطفل وتغير على أبعد الحواس عنها ، فتندس في ثناياها موسعة في مداها مزكية إياها أو غاضة منها ، وتأبى الا أن تضع عليها بصماتها وتعطيها طابعها النهائي ولونها الاخير .

⁂

حتى الموت عندنا لا يستطيع أن يهدم الفوارق الطبقية فاذا المآتم مأتمان ، أحدهما للخاصة والآخر للسوقة والعوام لا تداخل ولا اختلاط ، وكأن الميت يضحك من سخف القوم وعنادهم وتشبثهم على حافة العدم بالتوافه والقشور .

⁂

رماية الفنان ... أعجب بها من ثالوث يتحد فيه السهم بالرمية والرامي ، كل قاتل بل خالق ومخلوق في آن !

⁂

ضدان متصارعان الخير والشر لا ينى كلاهما يغرى بالآخر ! إغراء الصديق بالصديق .

⁂

ويل لدولة جنودها وشرطتها سباع ضارية يراها المواطن فيرهبها ويزدريها في آن !

البشير المجذوب

المدينة تلعن أبناءها

قصة: علي جديد

(حلب)

كثيرة هي الهموم .. وصعبة جدا أمور الحياة .. وزمام الاشياء خارج ارادتنا . فماذا نفعل سوى مواصلة الحياة ببلاهة الحمقى ، والعمل بكد البهائم .. والتذمر مما يدور حولنا ؟ ... بربك يا عبد الرحمن ، قل ماذا تستطيع فعله ؟! ..

منذ عشرة أيام وأنا أبحث عن عمل في هذه المدينة الصاخبة .. والاهم من ذلك ، أبحث عن غرفة صغيرة ، أسكنها ، فوق سطح عمارة شاهقة أو تحت سلالم هذه المباني المتراصة فوق بعضها البعض ، وكأنها علب حلوى تتسابق اليها أفواه شرهة لم تعرف الشبع في يوم ما .

★ ★ ★

المدينة !!.. قالوا : إن المدينة موطن العجائب .. الكل فيها مرتاحون .. والجيوب ـ في المدينة ـ سرعان ما تمتلىء ، وسرعان ما تفرغ . كل شيء فيها عجيب ، وغريب .. وكأن (خاتم سليمان) في يدك ، كل ما تتمناه نفسك تجده فيها ، وتحصل عليه بسهولة غريبة.وقالوا : إنك تستطيع أن تتمتع بمشاهدة فتيات المدينة ، وأن تسمعهن اطراءك ـ على المكشوف ـ بينما يقابلنك بابتساماتهن العذبة ، وتمايل قدودهن المشوقة بغنج ودلال . والنتيجة .. أنني منذ وصولي هذه المدينة استقبلتني احدى حسناواتها بصفعة قاسية،مدعية أني تحرشت بها مستغلا ازدحام (الباص) الرهيب ـ ويشهد الله أني بريء ـ . لقد آلمتني صفعتها ، كما تؤلمني الآن تعليقات من كانوا حولي ، وكلماتي البذيئة ، عن الريف ، وأهل الريف . نظراتهم الى ما تزال تخترق

جسدى كوخز الابر ، ولكن .. ما العمل ؟! .. فالغريب مستضعف ـ خارج أرضه ـ ولو كان (عنترة) .

★ ★ ★

اننى عامل فرن ممتاز ـ فى قريتى ـ .. أعجن (جوالا) من الدقيق فى أقل من ساعة ، وأصمد أمام نار (التنور) اكثر من ست ساعات متواصلة .. وقال لى القادمون من المدينة ، بأن أصحاب المخابز سيتلقفوننى مثل (لقمة الغلاء) . وها هو الاسبوع الثانى يدخل على وجودى فى هذه المدينة دون ان اوفق لعمل .. والمصروف ، يتبخر شيئا فشيئا ، وكل ما حصلت عليه ليس اكثر من تهكمات اصحاب المخابز ، الحديثة وتعليقات أسمعها من الكبير ، والصغير . واذا لم أحصل على عمل حتى آخر هذا النهار ساشد الرحال عائدا الى قريتى (أم الخوابى) ، وسأبقى هناك قانعا ـ رغما عنى ـ بقسمتى فى العيش . فصاحب الفندق ، وحده ، قبض منى ، حتى الآن ، ما يكفينى وعائلتى شهرا كاملا فى القرية . !!! .. هيا يا عبد الرحمن ، أين همتك ؟.. ساعدنى يا رب .

★ ★ ★

هذا مخبز يختلف عن غيره من مخابز هذه المدينة ، العجيبة ، .. لاول مرة ارى فيها مخبزا فيه (بيت نار) ، لان المخابز التى مررت بها قالوا بأنها على (الذرة) اى انك تصنع (جوال) الدقيق من هنا ، فيخرج من هناك خبزا جاهزا للبيع والاكل .. كان الله فى عون الصادق .. من يعجنه ؟ .. ومن يقطعه ؟.. ويخبزه ؟ .. الذرة كما أظن .. هه .

دخلت ، تلفت حولى أبحث عن صاحب المخبز ـ كان الناس يتقاتلون من أجل الحصول على بضع أرغفة ـ ما أكثرهم شهداؤك وضحاياك أيها الرغيف المستدير ـ ، عامل ، طويل ، يقف امام (بيت النار) ، يدخل فيه أقراص العجين ، المرقوقة ، ليخرجها منه ارغفة ، حمر ، شهية . وآخر أمام (عجانة) حديثة ـ على الكهرباء ـ .. يا لهذه المخترعات !! .. وثالث يقطع العجين ويضعه فى فوهة آلة صغيرة ، فيخرج من الجانب الآخر أقراصا رقيقة ، جاهزة للخبز .. كل شىء على الكهرباء ـ الا (بيت النار) ـ ترى ماذا يحدث لو انقطع تيار الكهرباء ؟! .. هل يعرفون العجن ، والتقطيع ، والخبز ؟! .. أم أنهم ...

ـ ماذا تريد يا أخ ؟..

جاءنى صوت أجش .. كان صوت رجل تجاوز الخمسين من عمره ، يقبع ، على كرسيه خلف طاولة تتوسط ساحة المخبز ، وعليها صندوق يصدر رنينا كلما وضع فيه قطعة نقود ، اقتربت منه :

ـ عفوا .. اذا سمحت يا أخى أريد مقابلة المعلم ..

ـ ولماذا تريده ؟ ..

ـ أود العمل عنده ، اذا كان يلزمكم عامل ..

ـ هه .. وماذا تستطيع عمله ؟

خمنت بأنه صاحب المخبز ـ اذا لم يكن فضوليا اكثر من اللازم ـ . بدأ معى تحقيقا طويلا .. سألنى عن اسمى ، وعنوانى .. وأين أنزل .. ومن أين قدومى .. قال لى :

ـ لنر ما تستطيع عمله .. يا (سالم) خذ هذا معك ..

سألته :

ـ عفوا .. كم ستعطينى ؟ ..

نظر الى .. تأملنى من قمة رأسى الى أسفل قدمى .. أمسك ابريق ماء زجاجي ، كان بجانبه ، رفعه الى فمه ، وبدأ بصب الماء فيه بطريقة غريبة..أعاد الابريق لمكانه ومسح بطرف كمه الماء حول شفتيه تجشأ ، بقوة ، ثم قال :

ـ نبيه ... سأحسب لك عشر ليرات عن اليوم الواحد ...

ـ ولكن الفندق وحده يأخذ منى سبع ليرات ..

ـ وماذا أفعل لك ؟ ... على كل ، هذا مبدئيا ، وأجرك قابل للزيادة حسب ما تبذله .

ـ زدهم قليلا ..

ـ تكرم .. وفوقهم ليرتان أخريان .. ماذا قلت ؟

ـ شكرا ...

صرخ بأعلى صوته :

ـ هيا الى العمل .. عجل يا ولد ، الناس ينتظرون .. أين الحركة ؟ .. اين أنت يا (سالم) .

كان (سالم) يد المعلم اليمنى .. معه مفتاح المخبز .. هو الذى يفتحه . وهو الذى يغلقه ، والمعلم يستشيره فى أكثر أموره ـ الخاصة بالمخبز وعماله ـ ويعطيه أعلى أجر بين العمال . مكانته عند المعلم لا يطمح أحد بالوصول اليها ، فهو النائب الاول للمعلم ، ويسكن ـ مجانا ـ احدى دوره . لماذا يحبه المعلم ؟!.. الله أعلم .

★ ★ ★

الحمد لله .. لقد بدأت العمل . وغدا ستتحسن الاحوال ، سيتضاعف أجرى عندما أثبت لهم بأنى معلم ممتاز فى صناعة الخبز .. سأتخذ لى بيتا صغيرا .. غرفة واحدة تكفينا نحن الثلاثة .. زوجتى ، والطفل ، وأنا .. سنعيش سعداء، فالولد سيكبر ، ويدخل المدرسة ، وبعدها الجامعة وسنرتاح من هم الارض ، وحرائتها وتعشيبها ، والتعب المضنى فى جنى المحصول وبيعه . سنكـون ، هنا ، أحسن حالا ، وسنصبح فوق الريح .

★ ★ ★

مرت الايام الثلاثة الاولى ، بسلام .. فى فجر اليوم الرابع ، دخل علينا (سالم) يحمل فى يده عصا غليظة .. كانت أحواله مقلوبة .. ثيابه ممزقة ، ورأسه معصوب بخرقة ، ملونة ، قديمة .. وعليها اثار بقع من الدم ـ غير جافة ـ تحلق حوله عمال المخبز يسألونه ، بلهفة ، عن سبب انقلاب حاله الى ما هى عليه .. قال بثورته الجامحة .

ـ ابتعدوا عنى .. اتركونى ... أين (الحاج سعيد) ؟..

ـ (الحاج سعيد) المعلم ؟

ـ نعم .. الكلب (سعيد) ..

ـ وماذا فى الامر يا (سالم) ؟ .. هل أنت تهذى ؟ ..

ـ حضرته ، يظن الناس مثل بعضها .. بالامس استطاع اغواء (رجاء) وجعلها تطرد (كامل) ، زوجها ، وها هو اليوم يتسلل الى بيتى لينال من زوجتى .. الكلب .. سوف اذبحه لاريح الناس من شروره .

هدأوا من روعه ، وثورته ، اشعلوا له سجارة بدأ يدخنها بعصبيـــة ... بعد قيل وقال .. عرفت بأن هواية معلمنا سلب عماله زوجاتهـم ، وتشـريـد أطفالهم فى الشوارع .. أما العمال فينتهون اما فى السجن او فى خمـــارات

المدينة وشوارعها . هكذا هى عدوانيته .. لماذا ؟ .. الله أعلم . المهم أن (سالم) قبض مبلغا محترما من المال ووعد بأن لا يعود للمخبز بعد اليوم .

بعد ظهر اليوم التالى .. دخل (الحاج سعيد) يتبختر مزهوا ، وكأن شيئا لم يحدث . وقف العمال يتأملونه .. صاح فيهم :

ـ ماذا بكم ؟ .. هل صدقتم رواية ذلك المجنون ؟!.. لعنة الله عليه يعض اليد الممدودة لمساعدته ... يتنكر للنعمة والمعروف .. تفوه عليه وعلى امثاله من الساقطين . كل ما فى الامر ، يا شباب ، أنى كنت عائدا من صلاة الصبح ، ومعى بعض الفواكه .. مررت ببيته ، فتذكرت أولاده المساكين ، طرقت الباب لاعطيهم بعض ما أحمله .. واثناء حديثى مع زوجته ، حضر الافندى هددنى ، واعتدى على فاضطررت للدفاع عن نفسى وضربته ، والغريب أن زوجته ، تلك الملعونة بنت الملعونة ، أكدت للناس ما ادعاه على زوجها . .

هززت رأسى مأخوذا بقصة (سالم) .. التفت المعلم الى وسألنى :

ـ كيف الحال يا عبد الرحمن ؟ .. هل انت مبسوط فى عملك ؟ سأزيد لك أجرك فى الاسبوع القادم ثم ، تجشأ بقوة ، .. قال لى (ماجد) هامسا :

ـ لا تأبه له .. اشتغل فانه خنزير كاذب .. لقد فعل ما قاله (سالم) ... أنا رأيته ، ولما علم بأنى أعرف نواياه نحو زوجة (سالم) أعطانى مائة ليرة وهددنى بالطرد ، واتهمنى بالسرقة اذا بحت (لسالم) بشىء ..

قلت فى نفسى :

ـ عليك اللعنة أيها الخبيث .. أعراض الناس يا شائب الكلب .. هكذا تكافىء من يأتى لمخبزك قبل الفجر ليحفظ لك مصالحك ؟ .. يا لك من نذل ناكر للجميل .. ولكن .. لماذا سيزيد اجرى ؟ .. لماذا يتودد الى ؟! هل يفكر بتقريبى منه حتى أنتهى مثل (سالم) .. هل سأكون التالى من ضحاياه ؟ الكلب ، يظننى فريسة سهلة ..

★ ★ ★

فى مساء اليوم التالى ، اقتربت من المعلم أسأله شيئا .. لكن الخوف كان يعقد لسانى ، ويلصق الكلمات فى سقف حلقى ، فيمنعها من الخروج . شعرت بأنى

فقدت مقدرتي على التعبير ... أريد أن أعبر له عن شوقي لـزوجتي ولطفـلي الوحيد ، ولقبر أمي الذي اعتدت زيارته صباح كل يوم (جمعة) كيف أعبر له عن حنيني ، المتأجج في أعماقي ، للبيدر .. والنبـع ، والـدار .. اشتقت لسماع نباح كلاب قريتنا ، ونقيق الضفادع في المستنقع القريب من بيتنا .. لمبة (الكاز) افتقدتها منذ دخولي هذه المدينة .. اشتقت للسعات البعوض الذي كنت أتذمر منه ، وألعن الساعة التي خلق بها .. اشتقت لكل ذلك ، ومللت .. مللت المدينة ، وضجيج السيارات وصخب ابواقها .. كرهت التأمل في زنود النساء العارية ـ بقلة أدب ، وقلة دين ـ وقرفت من الاصبعة التي تعلو وجوههن وتطمس ملامحهن وهن يتفاخرن بتدخين السجائر الطويلة ، المغرية .. كم هي جميلة قريتنا .. وكم هن وديعات بناتها ومحتشمات ... ونخوة الرجال عندنا لا تقدر بثمن ، فبنات القرية عندنا ، أخوات لكل رجالها .

انتبه المعلم لوقوفي بجانبه .. سألني :

ـ ماذا تريد يا عبد الرحمن ؟ ..

ـ لا .. لا شيء .. فقط أردت أن أسأل اذا كان بامكان الذهاب الى القرية .. زوجتي .. و .. وابني ..

قاطعني : متى تريد الذهاب ؟ ..

أجبته بلهفة : ـ اليوم ..

ـ حسنا ، تستطيع الذهاب ، لترى زوجتك ، فانها ، حتما ، تنتظرك فاليوم (الخميس) والواجب ..

وغمز لي بعينه ملمحا ، بوقاحة ، ثم تجشأ بقوة.. مد يده الى صندوقه الرنان وناولني منه أجرى مضيفا فوقه عشر ليرات هدية متواضعة منه .. تلقفت النقود من يده ، واطلقت ساقي في الريح .. مررت ببائع الحلوى .. اشتريت علبة مليئة بالحلوى ، وانطلقت نحو (الكراج) .. استقبلني صديقي (دياب) معاون (الميكو) الوسيلة الوحيدة للتنقل من قريتنا الى المدينة ، وبالعكس .. أجلسني في مكان جيد ـ قرب النافذة ـ حيث استطيع تأمل الطريق الفاصلة بيني وبين القرية ـ جلس بقربي .. سألني عن احوالي أخبرته بكل شيء ، منذ وصـولي المدينة ، وحتى وعد معلمي بزيادة أجري .. أبدى لي اقتراحه الغريب :

ـ لماذا لا تستأجر بيتا فى المدينة وتأخذ اليه أهلك ؟

ـ ومن اين النقود ؟ .. أنت اعلم بالحال يا (دياب)

ـ الارض .. بع الارض واشتر بثمنها دارا صغيرة لك ولاهلك

ـ ماذا تقول ؟ .. انا ابيع الارض ؟!!

ـ وما المانع ؟.. ما دمت ستستقر فى المدينة

ـ ومن قال لك ؟.. اتق الله يا رجل ، فانا ذاهب الى الارض أريد ان ازرعها.. أنام فوق ترابها ، فقد طلقت المدينة طلاقا ، باتا ، ولن أعود اليها مـا حييت .. انهم يأكلون لحم بعضهم فى المدينة ـ .. ايسألنى أنا . .

ـ يا مجنون !!.. ما علاقتك بهم ؟.. وما موقفك من معلمك ؟ قلت بأنه يحبك

ـ دعه يتجشأ كما يريد .. فالارض جنة ـ لا يعرف خيرها الا من جرب غيرها ـ .. وابله من يخرج من الجنة ليدخل الجحيم ، أليس كذلك ؟! ..

وأطلقنا معا ضحكة عالية ومرحة ، بينما (السيارة) تلتهم الطريق الاسفلتى المتعرج ... لتخلفه وراءها اسود ، طويلا ، لا نهاية له .

علي جـديـد

حلب

فى الأعداد القادمة تقرؤون

عظماء بلادى فى الميزان (دراسة)	بنت البحر
سوسة الساحرة (دراسة)	أحمد خالد
ليالى الضجر (قصة)	حياة بن الشيخ
هل يشهد القرن الخامس عشر للهجـرة عـودة المسلمين للاسلام (دراسة)	محمد فاضل الجمالى
آراء فى مذكرات الشابى ورسائله (دراسة) ..	أحمد الشتيوى

زخارف على قبر الفارس في عرس الموت

شعر: محمد علي الهاني

يا وجها سافر فوق سراع الدهشة يرفل فى حلل الحلم الشفافة ، يحمل فاكهة الوهم العسلية فى شريان الجرح الراكض كالفجر المتوغل سيفا من لهب ياقوتى فى خاصرة الأحزان .

يا وجها أرسى ، بذرة إخصاب فى جمجمة الزمن الآتـى ، فى مينـاء الدفء المتوهج بالأسرار الفردوسية ، واستلقى ، مبهورا ، فوق سرير اللذة ، تحت عناقيد الضوء المتدفق من أفق الألحان .

الفارس مات يغنى فوق رمال القحط ، يلوك تراب النجم الهارب من ليل التيه الموشوم بازميل الغثيان .

الفارس مات يغنى ـ تجرحه أظفار الشمس العـاقر ـ فى المنفى بين الأحيـاء الموتى ، والجرح المفتوح الأخضر أغفى تحت الزخات الدموية فى بئـر الصمت المحفورة فى أوجار النسيان .

الفارس مات يغنى ، يبحث عن كلمات لا يجرى فيها ماء الزيف وعن رؤيـا لا تحجبها سحب الكابوس الأرعن ، عن فرح يأتى من أدغال الأشجان .

الفارس مات يغنى ... ساعدنى يا وجها فارقنى ـ وتعمد فوق جبـال النـور بماء الزهر ـ فارقنى فتقوقع وجهى فى سرداب الاغماءات ، تسلـق صوتى ـ كالسنجاب الافريقى ـ جذوع الآه اليجرى فيها نسغ الحرمان .

ساعدنى ـ يا وجها قمريا ـ أرسل فى شريانى الأجوف دفقا أخضر ، امنحنى قمرا يتربع فوق جبينى ، يزرع فى بيداء العطش السوداء رؤى العشق وعرس الألـوان .

بين العـــروض والإيقـاع (*)

بقلم : محمد الهادي ببباس

(2)

أسباب فساد النظريات وتناقضها وغموضها :

جاء فيما يتعلق بأسباب فساد النظريات وتناقضها وغموضها مـا يـلي في « نظرية إيقاع الشعر العربي » :

1) فقدان الوثائق المسموعة والمخطوطات المرقومة او قلتها ...

... وانظر كيف انه رغم الامكانيات الحديثة والترقيم الموسيقي لا يمكن الى الآن تدوين الالحان الشرقية تدوينا كاملا . فكيف تكفي تفاعيل الخليل لتدوين الايقاع الشعري عند العرب او كيف تكفي اشارات ابى الفـرج الاصفهانـي لتدوين اغاني كتاب الاغاني .

2) تطور الاصول والمبـادى :

« والذوق الذى اقر الاصول والمبادىء في زمن سابق قادر على رفضها في زمن لاحق لاقرار اصول ومبادىء اخرى نتيجة لتبـدل المعطيـات التاريخيـة والجغرافية وتحول الظروف الطبيعية والحضارية وتغيـر الاصـول الثقافيـة والاجتماعية ، ... ويكون التمسك بها (النظريات) في حال تجاوز الاحداث لها خيانة للفن واعاقة له عن سيره العادى وتطوره الطبيعي ... وحتـى فـي ميدان العلم كم من نظرية وقعت مراجعتها لان التقدم العلمي أكـد بطلانهـا . ويقول بسكال بحق : « ان كل حقيقة وضعت انما وضعت للتمييز بين الاشياء لا لبيان طبيعتها . »

3) قيام النظريات على يد غير المختصين :

(*) تابع لما نشر في « الفكر » العدد 1 ، س 25 ، اكتوبر 1979 .

لا بد ان تأتي النظريات على يد اهل الخبرة والمختصين فلا يتطفل أحد على ما ليس من شأنه ولا يتكلم فيما لم يمارسه من الآداب او الفنون او العلوم ».

وجاء عن صاحب « النظرية » أيضا .

وليكن الباحث الذي يبحث في الفن من اهل الفن واهل مكة ادرى بشعابها . واننا لا نعدم من بين هؤلاء واحدا يجمع بين حب الجمال وحب المعرفة ولا يستنكف من مزج الفلسفة بالفن والبحث النظرى بالعمل الفني رائده في ذلك الرغبة في اقرار مبادىء للفن من شأنها ان تواجه الفوضى والتناقض المسيطرين على النظريات . واما ان يشتغل بدراسته اقوام هم غرباء عنه ، دخلاء لم يمارسوه ولم يعالجوه ولم ينفذوا في تضاعيفه وحواشيه ولم يتنقلوا بين اسافله واعاليه ولم يكن لهم من سلاح لمواجهة الصعوبات ومجابهة المشكلات غير مالهم من المنطق السليم والفكر المستقيم من غير ان يتدرعوا بالحساسية والذوق والحدس ...

كما جاء ايضا :

فاذا لم يكن شاعرا ولا مغنيا ولا عازفا انتفت عنه صفة الحساسية التي هي اهم ما يتسلح به الدارس لايقاع الشعر العربي .

ويتدرج بنا هكذا صاحب « النظرية » من طرح الى طرح ومن نفي الى نفي معددا ما كان في نظره سببا لفساد النظريات التي سبقته حتى كان القانون الذي وضعه والذي يرى انه يجب أن يخضع له كل دارس لايقاع الشعر العربي حيث جاء في كتاب « النظرية » ما نصه :

« أعلم انه لا بد لمن يروم دراسة الايقاع الشعري العربي من ان تتوفر فيه شـروط :

1) ان يتكلم العربية منذ صباه ليكون قادرا على النطق بها مميزا بين المقطع المقصور والمقطع الممدود يعطي للثاني ضعف وقت الاول على عـادة العـرب الاولين عند الكلام . فكل محاولة لمستشرق في هذا الصدد مآلها الفشل لعدم توفر هذا الشرط فيه بسبب نهوضه الى تعلم اللسان العربي في سن متأخرة وعدم ممارسته ممارسة حقيقية فتشتبه عليه المقاطع ولا يكاد يميز بين المقصور والممدود وبين الثقيل والخفيف .

2) أن يكون شاعرا قد حصلت له هذه الملكة بالاستعداد الطبيعي اولا ثـم بكثرة الحفظ وجودته ، و لاتحصل الملكة لذى الاستعداد الطبيعي بلا حفظ ولا

تحصل لذى حفظ بلا استعداد طبيعى لان الحساسية من الامور الفطرية غير المكتسبة وأما الحفظ فوظيفته تشبه الحساسية والغريزة الايقاعية وتنميتهـا ولولاه لبقيت كامنة كمون النـار فى الحجـر والعـود . ولئن وجـد من كان محفوظه كثيرا وجيدا ولم يقل الشعر فلانعدام الغريزة الايقاعية فيه او لضعفها والخليل من هذا الصنف .

3) ان يمارس الموسيقى بالغناء او بالعزف لتتم له السيطرة على الايقاع لتنوعه فيها واختلاف اوضاعه واحواله فتكون النظرة له أدق واسلم والالمام به اكمل واشمل وممارسة الرقص زائدة فـى تنميـة الحساسيـة الايقاعيـة وتقويتها وهو موطن الايقاع المفضل لانه فيه اوضح يكاد ينطق بينما هـو فى الشعر والموسيقى مغطى تواريه المقاطع اللفظية والاصوات الموسيقية .

تلك هى نظرات صاحب « النظرية » فلنتدبرها . فاما ما ذهب اليه فى الدور الهام الذى تلعبه الوثائق المسموعة من اسطوانات واشرطة وبكرات مسجلة في محافظتها على اصالة الايقاع والاداء فانه لا يمكننا الا ان نؤيده بكل قوانا هذا فيما يخص الغناء والالحان . اما ان نتجاوز هذه الى الشعر لنعجب من تفاعيل الخليل كيف يمكنها تدوين الايقاع الشعرى عند العرب فـذاك فيـه شطـط واجحاف اذ الشعر ليس الا كلاما كبقية الكلام بنى الايقاع فيه لا على صنـاعة خاصة فيها المقام ونصف المقام وربع المقام والخافضة والرافعة وغير ذلك من التشبعات الصوتية والايقاعية بل على تسلسل المقاطع الصوتيـة الممـدودة والمقصورة على نسق معين . وبما ان الحاكى وآلات التسجيل الصوتية لم يقع بعد استحداثها وحيث ان العرب اعتادوا ان يبدؤوا البيت من بدايته ويقفون وقفة عند الصدر ، عندما يصـل الصـوت الى اقصى جـوابه فى السلسلـة الصوتية ويستأنفون الالقاء الى نهاية العجز عندما ينزل الصوت الى اقصـى قراره فيقفون ثانية ، شعر الخليل كما شعر غيره وما زلنا نشعر ان البيت يكون وحدة صوتية ذات رونق يحسن ضبطها حتى لا تضيع والفكـر الحـى والروح التواقة والهمة العالية لا تكتفى بالسماع والتذوق بل هى تبحث عن مفاتيح تفتحلها المغالق وتستنبط طرقا للبحث والمقارنة تجلى لها الغوامض فاذا الشعور حس واذا الغوامض عارية ويكون الالهام . وكان للخليل ذلك العالم النحوى الذى كانت صناعته اللغة ومقاييسها الهامة فأخذ يحلل الابحر بنوعيها افقية ويتدبرها بما يتدبر به الصيغ الصرفية فانكشفت له الاسباب بنوعيهـا فاطلق عليها اسماءها ليميز بينها خفيفا وثقيلا . فما كان يتركب مـن حـرف

واحد متحرك لينتهي الى ساكن ميت او حي سماه خفيفا وما كان يتركب من حرفين متحركين متتاليين لينتهي الى ساكن سماه ثقيلا .

وانكشفت له الاوتاد عندما جمع الاسباب فيما بينهـا فـاذا هي مجمـوعة ومفروقة وانكشفت له الفواصل صغيرها وكبيرها . والعبرة ليست بالمسميات ومناقشة اسمائها أكانت صحيحة ام غالطة وانما بما اصطلح عليه عند وضع الاسماء حتى تكون المسميات ذات دلالة واضحة وهذا في عرف الخليل حاصل . وقارب الخليل بين الاوتاد والفواصل وما انتهى اليه علمه من الموازين الصرفية فكانت التفاعيل المعـروفة ، فعولن ، مفاعيلن ، فاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلن متفاعلن ، مفاعلتن ، مفعولات .

ثم ان تحليله الافقي للابيات داخل البحر الواحد اداه الى التعرف على ان هذه التفاعيل قد تدخل عليها بعض العوامل فتتغير بصفة طفيفة عرضية في حشو البيت وثابتة من اول القصيد وآخره في العروض وضربـه فكـان مـا سماهما بالزحاف والعلة وهكذا ضبط الموازين ، وضبط لكل ميزان او بحر ما يحصل فيه من زحاف وعلة ، منها ما هو شائع فاستساغـه الـذوق فجعلـه مستحسنا ومنها ما هو نادر فاذا هو عند الاذن ناب وعن السلسلة الصوتيـة ناشز فاستقبحه وان ابقاه مباحا ، ولاحظ ان بعض الزحافات لا يمكنهـا ان تعترى التفاعيل حسب البحور فضبطها في قائمات الزحافات والعلل الممنوعة وهكذا ظهرت نظرياته في الخبن وغيره . واذا بتشخيصه للموازين يقوم مقام التسجيل الصوتي والترقيم ليحفظ لنا الايقاع الشعرى القرون الطوال مـن التلف .

كيف لم يوفق الخليل من خلال كل هذا الى الوقوف على نظريـة القيمـة المزيدة والتلوين والاسكات وتسهيـل الاهتضام والتعـويض وتنويـع البـدء والخواتم وجمع الاوزان في اهرام على طريقة صاحب النظرية ؟ الجواب ليس بعسير انه انطلق من القاء الملقين للشعر ، من شعراء ورواة ، ولـم يتخيـل بذهنه العناصر الساكتة التي تمتد لوقت او وقتين او ثلاثة اوقات ولم يهتد الى حساب السكوت أهو في آخر البيت أم بدايته ؟ ومن أين له ان يهتدى الى ذلك ولم يتعود العرب تعرية الختم والبدء بالروى وكيل الوقـوف ، والالقـاء المسترسل من اول القصيد الى نهايته دون الوقوف ولو مرة لاسترجاع النفس والاستراحة في الاختتام السالمة . كما نلاحظ اليوم بالنسبة للشعر الملحون وان تعودوا على ما يبدو استصحاب القائهم بالضرب بعكازة على اديم الارض . امن حقنا ان نؤاخذ الخليل واتباعه لانهم لم يهتدوا الى ما اهتدى اليه استاذنا؟

ونشنها حربا عوانا عليهم منكرين عليهم تدخلهم في ميدان حكمنا اعتباطا انه ليس من اختصاصهم ولا من مشمولاتهم ناكرين فضلهم علينا في فتحهم بابا من العلم كان موصدا لننتظر الى الربع الاخير من القرن العشرين من سييسره الله لتقديم نظريته المكتملة في ايقاع الشعر العربي ؟

ونحن كذلك على رأى صاحب « النظرية » من ضرورة تطوير العروض بما يجعله يساير تطور العصر وتطور الشعر خاصة وان الشعر المعاصر اخذ يميل اكثر فاكثر الى التحرر من الموازين التقليدية الى ما يسمى بالشعر الحر او « في غير العمودى الحر » . ومما لا شك فيه ان هذين النوعين من الشعر ان اختلفا عن الاصل في النظم العربي فان لهما رونقا يكون في اغلب الحالات ثمرة حركة على علماء الايقاع ضبط نواميسها ان وجد فيها ايقاع . اما ان نعتبر التمسك بنظريات الخليل خيانة للفن اذ تجاوزتها الاحداث فان مثل هذا الموقف غريب وغريب جدا . متى ظهرت نظريات صاحب النظرية » حتى نترك ما نعلمه الى ما لا نعلمه ؟ وهل قام بكل ما يلزم للتعريف بها ؟ وهل أن وسائل الاعلام تعهدت بعد بالتعرف عليها والتعريف بها ؟ وهل هضمها بعد ارباب الصناعة من شعراء واساتذة وحذقوها واشتد مراسهم فيها حتى يقبلوا على استعمالها في تدريسهم دون سواها بكيفية تضمن شيوعها وذيوعها ونجاحها فيفضلها عندئذ العصر عما سبقها ؟ عندئذ وعندئذ فقط يمكن ان نعتبر ان الذوق والمنطق والواقع قد رفضت كلها نظريات الخليل واقرت مكانها الاصول والمبادىء التى وقف عليها صاحب النظرية بفضل تجديد النظرة للايقاع الشعرى العربي بالرجوع الى وسائل قيس وتحاليل حديثة مستحدثة من تبديل المعطيات التاريخية والجغرافية وتحول الظروف الطبيعية والحضارية وتغير الاصول الثقافية والاجتماعية ، وعندئذ وعندئذ فقط نعتبر ان نظريات الخليل قد تجاوزتها الاحداث . اما والحال على ما هي عليه ، كتاب مرتفع الثمن لم يتعود القارىء رصد مثل قيمته لاقتناء كتاب واحد ، سميك في حجمه ومادته لا يجد كل امرىء في نفسه من الشجاعة ما يحمله على الاطلاع في تؤدة وترو على كل ما ورد فيه من الفه الى يائه من فوائد جمة وابعاد شاسعة وافاق مفتوحة ، فانه من الامور التى لا تخدم صاحبها ان يمزج مؤلف الكتاب بسط نظريته وشعابها باستحقار من سبقه واتهام من لا يوافقه مسبقا بالخيانة للفن واعاقته عن سيره العادى وتطوره لان مثل هذا المنطق ينفر المطالع المتطلع منذ الاسطر الاولى للكتاب ويرغبه عن مواصلة التوغل بين جنباته والاستفادة بما ورد فيه من جديد مفيد . ثم ان النظريات حسب رأيي

شأنها شأن اقتصادى . وما عساه ان يكون الضرر اذا وجد المريد الذى ليس له دراية بالترقيم الموسيقى ، فى تفاعيل الخليل ودوائره وعلله وزحافاته ضالته مما يمكنه اذا رجع الى سليقته وطبعه اينظم شعرا مستقيم الوزن ؟ هل من حقنا ان نشدد الخناق على الناس ونفرض عليهم الترقيم الموسيقى وما خف وما ثقل من العناصر الايقاعية لنمكنهم من حق قول الشعر بانواعه والخوض فى بحوره ؟ يعيب صاحب « النظرية » على الخليل وضع التفاعيل ويتهمه فى غير ما مرة بانه فرضها على الناس بغير حق فى حين ان الناس لما شعروا بانها ملات فراغا آلمهم قرونا طويلة قبلوها طوع ارادتهم . ولم يروا لقرون طويلة اخرى مرت بهم حاجة لتطويرها لانها كانت فى اعتقادهم كافية لحاجتهم وزيادة . فما باله اذ نقض هذه النظريات ووضع لنا فى الايقاع نظرية جديدة يطلب منا ان نبيع نظريات الخليل بثمن بخس لنشترى نظرياته كرها متهما ايانا بالخيانة ان رفضنا الصفقة ؟

لا تنه عن خاق وتأتى مثلـه   عار عليك اذا فعلت عظيم

نحن لاننكر ان النظريات حتى ما كان علميا منهـا ، عرضـة لتتجاوزهـا الاحداث ولا ننكر ان نظـرية الخليـل لا بـد لها يومـا بان يقـع تجـاوزها ولعله من اليقين ان تكون نظريات الاستاذ محمد العياشى هى التـى ستحـل محلها نظرا الى انها اجلت كثيرا من الغوامض ، شرحت فى بحثها العمودى للايقاع سر نشأة الايقاع الشعرى وتوليده من بعضه ، واعطت للايقاع صورة بصرية تمكن من الالمام به بسهولة والرجوع بها الى عالم المسموع بالرجوع الى آلـة نقـر مهمـا كانت بسيطـة ، الا انـه هنـاك نظريـات ونظريـات . ونظرية أرخميد فى الطفو Principe d'Archiméde ونظرية فيطاغوروس فى المثلث القائم الزاوية Théorème de Pytagore ونظرية طاليس فى الكسور Théorème de Thalès كلها ما زالت قائمة الى يوم الناس هذا لم يظهر بعد ما يناقضها او من يطلب من اهل العلم التخلى عنها بحجة انهـا من العهود المغرقة فى القدم رغم انها فى القدم اقدم من تفاعيل الخليل .

ان الحق حق مهما تطور الزمن وما استخلصه العقل مـن مراقبـة الواقـع الثابت حق مهما طال الزمن وتفاعيل الخليل اعتمدت قبل الاوان وربما دون ان يستطيع الخليل ان يعبر عما اوقفه عليه حدسه ، المقاطع الصوتية العربية فهى ثابتة ما دام العرب يمدون الممدود ويقصرون المقصور فاذا كان لا بد ان يحدث تطور فالتطور لا يمس التفاعيل من هذه الناحية بل عليه ان يتناول صياغـة الترقيم وهذا هو بعينة ما اهتدى اليه استاذنا اذ افرد الجزء الكبير من كتابه

ليبسط علينا طريقته في ترقيم الايقاع الشعرى مقدما له في براعة نادرة ، الاسس العلمية والعاطفية والابعاد التى بنى عليها نظرته .

الا انه لا بد من التأكيد هنا انه لن يقضى على الترقيم الخليلى الا باكتشاف طريقة فى الترقيم الايقاعى ابسط من تفاعيل الخليل مع توخى الدقة والضبط وهذا عين ما حاوله استاذنا محمد العياشى مشكورا فبلغ مقصوده ووفق فيه الى حد بعيد .

واما ان ننكر على غير المختصين حق البحث والمقارنة فى غير مادة اختصاصهم وان نلح فى ذلك ونكرر الالحاح بشتى الاساليب الى درجة التحريم فان مثل هذا الموقف ليس من الروح العلمية ولا من الروح الرياضية ولا من حقوق الانسان والعدل فى شىء والا فاين نحن من الوثيقة الامية التى تعترف لكل امرىء بحرية الرأى والمعتقد والصحافة والنشر ، واين نحن من الاسلام الذى يقول : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » . ويقول « من اجتهد واصاب فله اجران ومن اجتهد ولم يصب فله اجر واحد . » واين نحن من العلم الذى لا يعترف بمناطق الحرام واين نحن من الرياضة المقامة على التسامح والمساواة ؟ كل له حق التدارس ما شاء له القدر ان يتدارس بالوسائل التى استطاع وشاء منطلقا من الافتراضات التى شاء وان يبسط على اهل الرأى والفن والعلم والثقافة ما شاء ان يبسط ، والمستهلك هو الحكم له وحده ان يقبل البضاعة التى تقدم اليه وان يرفض ما يعرض عنه فى سوق الفكر والفن والعلم والنظريات .

ولو كان هناك قانون يمنع البحث على غير اهل الذكر باعتبار ان اهل مكة ادرى بشعابها . ما كان لشنبوليون Champolion الذى لم يكن مصريا وما عاصر الفراعنة وما كان ترجمانا بينهم وبين نابليون ان يقرأ الكتابة الهيروغليفية ويحل مغاليقها وما كان لبستور Pasteur المهندس الكيمياوى الذى يبحث فى صناعة الخل ان يدرس التخمر ويكشف عن الجراثيم ودورها فى التحويلات العضوية وتوالدها فيكشف عن جراثيم الكلب والداء الفحمى ويكشف عن الامصال المضادة لهذين الدائين اللذين كانا يفتكان فيما مضى بملايين البشر والحيوان وما كان له هو الذى لم يكن طبيبا ولا كان جراحا ان يطور الطب والجراحة .

هل طالعتم خلال ربيع سنة 1977 جريدة لابريس La Presse ؟ انها حدثتنا عن عالم تونسى لحما ودما احرز على جائزة وزارة الفلاحة الفرنسية

من اجل اكتشافاته المتعلقة بالطفيليات الفطورية الدقيقة وما لافرازاتها في المواد الغذائية الجافة كالزقوقو والفستق وغيرها من اثر في ظهور سرطان الكبد واعني بذلك الدكتور المنجي الجمالي باستور القرن العشرين ، إن طلبتنا في كلية الطب بسوسة يعرفونه جيدا اذ لهم معه دروس ومع هذا ما كان هذا العالم في يوم من ايامه طبيبا ولا استنكف الاطباء من تلقي دروسهم عنه ؟

أما وان يقوم بوضع نظرية الايقاع من كان ينتسب « الى شعاب مكة من شعراء وعازفين وراقصين ، وان ينهض الى هذا العمل الجليل احد ابناء فن الحركة الموقعة الذين يجمعون بين رهافة الحساسية ونفاذ الحدس ومهارة الفن والدراية بالعلم والاساليب العلمية في البحث والتحليل والتركيب ، والدراية بالفلسفة واساليب الفلسفة في صوغ النظريات » فيا حبذا لو كان ذلك ! .

ان مثل هذا الانسان يكون بعمله الحاذق هذا قد وفر للانسانية كنزا يتجاوز كل قيمة تحفظه له الاجيال الى يوم يبعثون ، خاصة اذا اتصف هذا الانسان الفنان الفيلسوف العالم البحاثة بالجد والموضوعية والنزاهة العلمية في مواقفه وابحاثه واستنتاجاته . وعدم التحامل العاطفي على من سبقوه الى ميدانه من اصحاب النظريات يفتحون له الابواب الموصدة ويمهدون له السبل الوعرة وان لم يكونوا من ذوي الاختصاص وان كانوا مخالفين له في المنهاجية والرأي . ألا ترون ان البناء يكون امتن اذا أقيم لبنة لبنة على أسس سليمة تعتمد شد الحجرة الى الحجرة بما يجعل الحجارة متماسكة متضامنة وان تعددت مقاطع الحجارة واختلفت الحجارة في تركيبها الهيكلي ؟ اليس من الافضل ان نتعامل مع كل ذي نظرية فنأخذ احسن ما وفق الله اليه هذا ونظمه الى احسن ما وفق اليه ذاك ونضم الى كل ما استفدناه من تجاربنا الخاصة وما وفقنا اليه احساسنا وحدسنا ثم نقوم بعمل تركيبي من شأنه ان يتقدم بالامر الذي نهضنا اليه في خطى ثابتة فتنهض به أشواطا ؟

على قدر ما اكبرت صاحب « النظرية » على المجهود المضني الذي بذله لتعصير علم العروض وصبه في قالب يتماشى والعصر وتقنيات العصر وتيارات العصر ، على قدر ما حزت منه في نفسي مثل هذه الجملة ومثيلاتها في مضمونها كثيرات :

« واما أن يشتغل بدراسته اقوام غرباء عنه ، دخلاء ، لم يمارسوه ولم يعالجوه ولم ينفذوا في تضاعيفه وحواشيه ولم ينتقلوا بين اسافله واعاليه

ولم يكن لهم من سلاح لمواجهة الصعوبات ومجابهة المشكلات غير ما لهم من المنطق السليم والفكر المستقيم من غير ان يتدرعوا بالحساسية والذوق والحدس » .

أو قولـــه :

« فاذا لم يكن الخليل شاعرا ولا مغنيا ولا عازفا انتفت عنه صفة الحساسية التي هي اهم ما يتسلح به الدارس لايقاع الشعر العربي » .

بأي حق يحكم استاذنا على الخليل او غيره من البشر بفقدان الحساسية والذوق والحدس ؟ ألأن الخليل لم يقل الشعر ؟ متى كان الشعراء انما ينظمون الشعر ليتذوقه اضرابهم من الشعراء فحسب ؟ أم هل ان كل حرفاء الشعراء من حفظة ورواة وأمراء يكافؤون عليه وهواة يولعون به فكرا ونظما وعاطفة جلاميد لا حساسية لهم ، تعفنت طبائعهم حتى فقدوا كل ذوق ، وتبلدت اذهانهم حتى انعدم كل حدس عندهم ؟ ان كان الذوق والحدس والحساسية وقفا على اصحاب الحركة وحدهم فأي متعة يجدها المنشد لاشعار غيره والسامع لالحان غيره والمتفرج على رقص غيره ؟ ثم هل ان الذوق والحساسية والحدس كفيلة وحدها بان تجعل المرء قائلا للشعر ، واضعا للالحان ، عازفا على آلات الطرب ، راقصا بهلوان ؟ لقد علمتني الحياة غير ذلك . علمتني انه ليكون الشعر شعرا يجب ان يكون له ايقاع . وليكون له ايقاع يجب ان ترتب الكلمات في البيت على نسق تألف منها اصواتا منسجمة مع أحد موازين الشعر . لقد علمتني ذلك قبل ان احفظ آلاف الابيات من الشعر كما اوصى به القدامى وكما يوصى به ايضا صاحب النظرية ضمن ما يشترطه فيمن له حق القيام بتدارس الايقاع اذ يطلب منه كثرة الحفظ وجودته . فكنت وانا صبي اختلق في لعباتي قصائد اضعها لنفسي على وتيرة ما نعطى من محفوظات ، فكانت قصائد قد انسجم ايقاعها واضطربت معانيها ، بالضبط كما لاحظ صاحب النظرية ان ابنه وهو مازال في سن مبكرة يضع لنفسه الايقاعات يلهو بهـــا حتى اذا ارتوى من وطابها تركها ونسيها الى غيرها . فهل يمكن ان نعتبر مثل الالاعيب شعرا ؟ لاسق لكم بيتا من البحر الطويل من هذا القبيل حتى ندرك ما اقصد اليه :

هزبر من الكـأس المكـور لـونه   بصخر على الاسفنج في مرقص الرشد

اني لا أشك لحظة بان من يطلع على هذا البيت سيرمي صاحبه بالخبال والهذيان لان هذا الكلام رغم مطابقته للايقاع بما يرضى في آن واحد الخليل

بن احمد واستاذنا محمد العياشى ، لا يتألف منه سلسلة صوتية منطقية تفيد معنى طريفا يستسيغه السامع ويتجاوب معه لما ضمنت من شحنات عاطفية ، وتصورات خيالية ، وافكار ثرية . بيد ان مثل هذا التمرين من الكلام الموقع ما أظنه يصعب على أى بشر تعاطى نماذج منه . فالشاعر اذن هو ذلك الذى يملك الى جانب الحساسية التى تجعله يدرك الايقاع الذى يصبغه على ما يقوله فى كل لحظة من اشعاره ، تلك القدرة على كيمياء اللغة فينتقى الكلمات ويرصفها ويمزجها فى بعضها بعضا ويركبها فيما بينها بصفة تجعلها تتآلف لتؤدى حسب الايقاع الذى اختاره لها مسبقا، المعانى التى صمم ان يعبر عنها في قصيدة قبل ان يشرع في نظمه.فمهمة الشاعر الفكرية اذن مهمة ثنائية ذات حركيتين : حركية تأليفية تجعله يؤلف بين المعنى والايقاع وحركية تحليلية تجعله فطنا فى كل لحظة للايقاع الذى اتخذه ميزانا والصور الطريفة التى يروم ابرازها لسامعه حتى يهزه طربا واعجابا .

اما دارس العروض فهل يحتاج الى مثل هذا العنت ؟ واين هو من مثل هذا العمل الفنى الدقيق الذى يقتضى نحت الكلمة والعبارة والجملة والفكرة والصورة ونقشها وحفرها وصقلها وترصيعها ليخرج لنا منها جميعا هذا القول الذى يصف انبعاث حركة ياسر عرفات مثلا :

« سنرجع يوما » انشد الدهر لاجىء   طريد بنى صهيون فى عبرة حرى
أقام بخيمات المذلة والارهاب   واليأس والاحقاد لا يعرف البشرا
اذا رام امرا ثبط الاهل عزمه   وان رام صبرا ألهبوا قلبه الجمرا
فلا هو مقدام ولا هو قابع   ولا هو مثآر وقد عشق الثأرا
لقد خاط صهيون ويعرب حوله   حزاما من الاكبال لا تعرف الكسرا
الى ان دوى صوت الحبيب مناديا   اريحة هبى وانفضى اليأس والقهرا
فلسطين ان القدس قد نزلت بها   جيوش من الرجس تريد بكم شرا
ومن غيركم يسطيع تطهير أرضها   وانتم بنوها فاطهروا ارضكم طهرا
أما من زعيم يجمع الصف بينكم ؟   ويقضى على الخذلان يدحره دحرا
فلبى الندا فتح وصمم ياسر   واصلت جيوش البغى عاصفة ذعرا
فكانت كرامات بحى كرامة   واخرى بمونيخ واخرى تلت أخرى

انما دارس العروض محلل لايقاعات لا غير وان كبرت الجهود وتكاثرت المقارنات ليخرج بعد الجمع والطرح والخبن والخزل تلك القاعدة التى تضبط دورية المقاطع الممدودة والمقصورة او بلغة اخرى العناصر الايقاعية الثقيلة والخفيفة . وبصفته محللا له وله وحده ان يختار فى عمله المنهج الذى يوصله

الى هدفه ، قد يكون الصيغ عندئذ تستعمل لقياس الكلمات فاستعملها جوازا لقياس الجمل ، وقد يكون المنهج مستوحى من الموسيقى وتراقيمها كما كان من الاستاذ محمد العياشى اذ ان الترقيم الموسيقى مستعمل اليوم لقياس العناصر الثقيلة والخفيفة فسمى الممدود ثقيلا والمقصور خفيفا . وقد تطلع علينا الالسنة La Linguistique فى وقت قادم بطرق اخرى مستوحاة مما يهتدى اليه علماء الاصوات وخبراء الاجهزة الالكترونية واهل الفيزياء وارباب الرياضيات من طرق التحليل والترقيم والمصطلحات .

الرأى عندى من كل هذا ان الميزان الشعرى وعاء يفرغ فيه الفنان ما اوتى من العاطفة والخيال والذوق والالهام والاحلام و .. و .. و .. و .. فهل يمنع الصانع من البحث فى اشكال الاوعية بالنظر لما سيفرغ فيها من السوائل ، ان البحور على الشكل الذى صبه فيها الخليل اوعية والايقاعات على الشكل الذى صبها فيها استاذنا محمد العياشى اوعية كل شاعر يختار الشكل الذى يناسبه حسب التربية الايقاعية التى تلقاها . ان ذلك من مبدا حرية المستهلك اقول به حتى وان كنت الى طريقة الاستاذ محمد العياشى نظرا لطرافتها ووضوحها واقتصادها أميل .

وما دمنا نتحدث عن الموازين والايقاعات فانه لا يسعنى الا ان اعرج مرة أخرى الى قضية الاقتصاد بالنسبة الى كل علم وكل فن . وساقنى الى هذا الحديث اشتراط استاذنا وفرة الحفظ وجودته على من يرغب فى دراسة الايقاع الشعرى ، اذ ما الفائدة من دراسة الايقاع سواء بطريقة الخليل او بطريقة الاستاذ محمد العياشى ان لم يكن فيها اقتصاد واذا كان من المفروض الا يدرك الايقاع الا بوفرة الحفظ وجودته الى جانب الاستعداد الطبيعى . ام تراها النظرية القديمة التى تناقلها مشائخنا من عهود الجاهلية بقيت منقولة الى عصرنا هذا ؟ انى ارى خيرا من ذلك وقد علمتنى التجربة البيداغوجية يوم كنت استاذا اباشر الفصل ، بان الايقاعات يتميز بعضها عن بعض بالقيمة الجملية لا بالتجزئة الى عناصر ثقيلة وخفيفة وساكتة او متحركات وساكنات وان ادراكها يقع بالحساسية قبل الفكر ـ ويوافقنى فى هذا الموقف صاحب « النظرية » فى اكثر من موضع من كتابه ـ فكنت آتى بالبيت من البحر الذى أريد أن أدرسه من بعض أناشيد السلامية الشهيرة فيتم انشاده ثم اوزع على التلاميذ مجموعة من الابيات من بحور متنوعة واطلب منهم البحث عن تلك التى تنسجم مع النغم الجديد فنقطعها حسب الطريقة التقليدية فاذا هى تنتسب الى نفس البحر ، وبهذه الطريقة اكتشفت انه لا داعى فى اضاعة

الوقت لتدريس الاسباب والاوتاد والفواصل ، بل كانت تأتى كتتمة نظرية لدرس عملى اذ كان تلاميذى يكشفون فى اسرع من الحساب الذهنى ، لسماع واحد ، الابحر المعروضة عليهم . بيد ان زملائى الذين كانوا يدرسون العروض من خلال التقطيع فقط بالرجوع الى الترقيم والاسباب والاوتاد والفواصل والعلل والزحافات كان تصيبهم عادة الفشل والعنت والارهاق ، كما ان طريقتى هذه مكنتنى من الكشف بين تلاميذى على مواهب قادرة على النظم فى شىء من اليسر لا تحتاج لصقل مواهبها الا لشىء من الدربة والتعهد .

ويمضى صاحب « النظرية » فى كيل الشتائم بالرطل والمتر والصاع والباع الى اصحاب النظريات بصفة عامة والى الخليل بصفة خاصة تكاد لا تخلو صفحة من كتابه من همزة او لمزة فاذا اصحاب النظريات فى رأيه يدخلون الضيم على الفن ويتطاولون على اهله بيد انه كان من الاحرى بهم ان يسكتوا لان وظيفة النظرية انما هى مراقبة الفن وتطوره عبر العصور بحيث لا تسلط عليه ولا يخضع لقوانينها وان كان فى النظريات حرز للعلوم والفنون من التلف والضياع والاهمال وحماية من الاخطاء والخلط بما تحفظه من اصولها وتضبطه من مبادئها التى لا مفر فيها من الضبط والتقنين ، واذا الخليل فى نظره لم يكن قد توخى فى بحثه ، رغم ما بيناه سابقا ، الاسلوب العلمى الذى يقوم على التحليل والاستنتاج من البسيط الى المركب والمعرفة الحقيقية للاشياء واذا هو لا يعرف طبائع الايقاعات ولا حقيقة كنهها ولا زاد فى عروضه على ان قام بدراسة سطحية للايقاع الشعرى العربى لا تزيد على انها خير من لا شىء ، واذا دوائر الخليل تعطينا صورا ايقاعية بصرية ملفقة مزورة على حساب الصور الصوتية فيضيع الخليل علينا بهذا الصنيع الضار ما يلزم لفائدة ما لا يلزم لان الايقاع انما جعل ليسمع ، واذا الخليل يسمى ايقاعاته بحورا يسند اليها اسماء لا تشير الى ما للايقاعات من خاصية الحركة والوقت ، ويخلط فى تسمية بعضها لانه ينسب بعض البحور ذات الايقاع السريع كالمخلع البسيط الى بحور أخرى كالبسيط بالاعتماد على التفاعيل ، واذا الخليل لا يرى فى الايقاع الشعرى العربى الا أجزاء سماها اسبابا واوتادا وفواصل وتفاعيل فلم يتحسسها كجملة ذات قيمة جميلة فتورط من اجل جهله بهذه الحقيقة ، واذا الخليل .. واذا الخليل ...

ان صاحبنا ضرب صفحا عن الخليل وعن كل ما صدر عن الخليل وعن كل من تبع الخليل ... ضرب صفحا فى عنف لا مثيل له وكأنى بمفعول التراكم الذى يحدثه ومفعول المعاودة والتكرار يحاول بهما جهده ان ينفرنا بدورنا منه

هو يسلك سياسة الترهيب والترغيب ، الترهيب من ان نعتنق مذهب الخليل والترغيب فى ان نعتنق مذهبه الجديد فما هو هذا المذهب الجديد هل من حقى ان اقدمه للقراء فى سطور ؟ ام تلك حقوق المؤلف أكون قد تجاوزتـه فيهـا ؟ يحسن به عندئذ ان احيلكم عليها فى كتابه « نظرية ايقاع الشعر العربى »

على كل لا بأس من اعطاء بعض مفاتيح هذه النظرية الجـديدة فى تـدارس الايقاع لعل ذلك يكون حافزا على مطالعة الكتاب :

1) لغة المدد والاوقات والاوزان مجهولة فى اصطلاح الايقاع الشعـرى الى اليوم لا تعرف الا فى اصطلاح الايقاع الموسيقى ، والطريقة المثلى فى تدارس الايقاع هى المعتمدة فى الموسيقى فلنعتمدها لدقتها ولنجتنب طريقة الخليل .

2) ليس البيت تقسيما للحركة الايقاعية ولكنه تقسيم للكلام والمعنى ، بل الحركة الايقاعية تعتمد على ميزان ايقاعى يتكرر فى نظام مرارا عديدة اثنـاء القصيد ، وهذا الميزان عبارة عن مجموعة العناصر الايقاعية التى لها وزن جزئى معين ووزن جملى معين وتستغرق مددا جزئية ومددا جملية معينة ولها بداية ونهاية وقيم حركية مضبوطة لا تفويت فيها ولا تفريط وينسج الكلام كله على منوالها . وهى قيم من الكميات والكيفيات لا تنقص ولا تزيد كما يزيد حجم البحر او ينقص وكما تزيد التفعيلة او تنقص .

3) العناصر الايقاعية بصفة عامة خفيفة مقصورة وثقيلة متبوعـة بسكـون تركيز او سكون استغراق

4) يخضع تأليف العناصر الايقاعية الى مبادىء اساسية ثابتة وهى :

أ ـ ألا يلتقى ساكنان ابدا

ب ـ لا ثقيل الا متبوع بساكن ولا ساكن الا قبله ثقيل .

ج ـ لا يكون العنصر الاول ساكنا .

د ـ خفة البداية ، ومن البديهى ملاحظة ان اغلب الجمل العربية تبتدىء على وزن معلوم بالترقيم الموسيقى (حركتان وسكون وحركة وسكون) .

هـ ـ ثقل النهاية اذ العرب لا يقفون على متحرك

و ـ عدد العناصر وترتيبها ، بحيث لا يتجاوز الميزان الثمانيـة عشـر عنصرا . ولا يقبل فى أصله أن يتتابع فيه أكثر من مقصورين أو ممدودين الا من تحريف يمكن من الجمع بين ثلاثة مقاطع ممدودة

ز ــ القيمة المزيدة ، فكانت زيادتهم على الايقاع الاصلي بمقصورين أو ممدود أو مقصور وممدود .

ن ــ احترام النظام بالنسبة للعناصر داخل الايقاع وعند معاودة الدورية

5) جملة مبادىء تخص التصرف فى العناصر الايقاعية عند استعمالها .

أ ــ مبدأ التسهيل : وهو نوعان :

ــ تسهيل المعاوضة ويقتضى تعويض مقصورين بممدود وتسهيل الاهتضام ويقتضى مد الخفيف بنصف قيمة تأخذ على مدة الخفيف الذى يليه

ب ــ مبدأ الاسكات : ويقتضى الترخيص للشاعر بان يخلى عنصرا ايقاعيا او اثنين او ثلاثة من المقاطع اللفظية

ج ــ مبدأ التنويع : اى الا نبتدىء الايقاع من عنصره الاول بل من احد عناصره الاخرى المتحركة كما فى تنويع البداء او البدء بالواجهة الساكتة وقلب الروى ، وتنويع الختم بين سالم خفيف وسالم متوسط وسالم ثقيل وسالم مذيل وسالم عادى وختم اعرج وختم ابتر خفيف وختم ابتر ثقيل وختم اجذم وختم مخلع .

6) نحن اذا طبقنا هذه المبادىء وجدنا ان جل الايقاعات الاصل فيها الخبب : فعلـــــن

وكل الموازين متولدة عنه عن طريق القيمة المزيدة والتنويع كما نرى فى ايقاع الرمل والكامل مثلا .

واذا أنت بدأت الخبب من تكه الثانى كان لك المتقارب .

الى غير ذلك . فما على المريد الا الرجوع الى كتاب النظرية . فان صاحبه بشرح التفاصيل أجدر .

على انى فى الختام اعتبر ما رآه صاحب النظرية تحريفا فى وزن الطويل انما هو تسهيل معاوضة بين عنصر خفيف زيد فى مدته نصف قيمة تم اخذها من الثقيل الذى يليه ، على كل الرأى رأيه اذ هو فى ميدان الموسيقى اعلم منى

محمد الهادى بسباس

(*) لم نحافظ على الترقيم الموسيقى لاسباب عملية مطبعية ونحيل القارىء الى كتاب النظرية والى ما نشرناه بالمجلة من مقالات لمحمد العياشى (الفكر)

الأناشيد

شعر : محمد علي الرباوي
(المغرب)

نشيد الدخول :

ربى .. أبعد عنى نفسى
واملأ من وجهك كأسى
حتى أعرف ذاتى
فى سفرى الممتد من الزمن الآتى
حتى أمسى .

نشيد المعمعة رقم 1 :

تمثالك يا صفصافة منقوش من أحجار الضوء الهشه .

زورقك العطشان يشق سنابل ذاتى ، وأنا خارج ذاتى ، أستحضر مرآتك على الملح وجهى فى أمواجك حيا ، لأقول له : إن الرحلة فيك إليك محرمة حتى يأتينا نبأ آخر يكشف عن بلور محيطك .

نشيد المعمعة رقم 2 :

قالوا : ملعون من يدخل هذا اليم ، وملعون من يخرج من هذا اليم .
أقول لهم : ملعون من يحتل على الرغم من الصدإ المزهر غمد السيف ولا يتخذ الغمد طريقا نحو اليم الغاضب .

نشيد الخروج :

قالوا : سافر عند طلوع الريح ، فسافرت . ولما أعيانى التجوال ومد على خمائله قلت لربى : أرنى يا رب اسم محطتى الاولى . قال : محطتك الاولى فى ذاتك . ــ وأنا خارج ذاتى ــ من يرجعنى يا رب إليها ؟

لأن الأرض علمتني أن أكون مسرفة

قصة : فوزية علوي

« إن الخذروف فى دورانه المجنون يبدو ساكنا .... والريح المولولة حينما يألفها السمع تبدو صامتة وقمة المأساة تضحك والفرح العارم يبكينى ..... »

إن لفح الشمس يجرحنى ... وخيال الغيم يلف أعصابى فيعصرها فأكاد أسقط على وجهى أتهدم ... تطير الشظايا منى فأحاول جمعها ... أقبض على اللا شىء ..... والريح فى عوائها تبعث فى فكرة الفناء .. لكننى أمسح الشوارع بنعلى ... أجمع فيهما بقايا السجائر والغبار والبصاق .. تهز الريح الشبح منى فالتف فى معطفى المهترىء وأتسكع ... تعلمت لعبة جديدة ... لعبة التسكع فى وقت يحشر فيه الناس هاماتهم فى الكتب المسودة ويحاولون الخلق أو الابداع أو الاغفاء ...

ويتزاحم الناس فى الحافلات المعربدة ... يتدافعون بالمناكب .. يشتمون رائحة العرق والدخان والرطوبة المميتة لكنهم يودون الوصول قبل الوقت بساعة ليندفعوا كالمجانين بين الاسلاك والاوراق ... والخبز والعلب المصبرة ... تعلمت أنا أن أبصرهم جميعا فى تهافتهم وأن أكون فى نظر الكل سلبية ..... لكنها لعبة جميلة لو تعلمتموها لما رستموها بشوق جذاب .... منذ وقت طويل هجرت الكتب ، عشرون عاما قضيتها أمضغ الحروف مضغا متواليا ، أقرأ عن الانس والجن عن عقد زبيدة وسيف هارون الرشيد وحذاء المأمون ورضاب خولة ... عن عالم فى الوراء اضمحل وتوارى وعن عالم فيه نعيش وعالم سيبعث يوما ما . استمتعت بآهات أقلام عديدة ، ببكاء أناس زهدوا فى الحياة ، مجوها أو مجتهم فأفنوا بصرهم وأحنوا ظهورهم يخطون ... ونحن نقرأ باستمتاع ، « نتمنى لغتنا » ، و « نتمرن على سلس الاسلوب » و « رقة

العبارة » .... لنحسن السفسطة والكلام ونقضى الوقت ... والوقت يطـأ الاعناق منا فيصرعنا فنحاول أن نلملم شظايا وجداننا دون أن نعلم ...

قضيت الليل الطويل أجلد النوم وأصارع جفنى صراعا مريرا لاقرأ صفحة أو أكثر ، مفادها أن الارض تدور وأن فى اليوم أربعا وعشرين ساعة وأنـا أقضى آلاف الساعات فى القاعات الفسيحة المكتظة بالاوراق المسعورة والالم الممض يسرى فى عمودى الفقرى وفى ناظرى فأتثاءب ، وأبتسم « للغنم » الذى حصل لى وأنغمس مرة أخرى الى أجل غير محدود ...

اليوم علمت « ومن ظن أنه قد علم فقد جهل » ... أصبحت أعلم أن الارض كروية الشكل تدور .. وفى العالم أجناس عديدة ... يشقى البعض ويصعد البعض على أعناق البعض ليسعد البعض ، وعلمت أن الناس خلقوا على أدراج مختلفة فرش الدرج الاول خزا .. والآخر لا فرش عليه ... لان نعمة الحياة هذه ولان توازن الكون لا يكون الا بالمتناقضات ... علمت أن النفس عالم واسع نضيع فى متاهاته والقلوب اذا كلت عميت فيجب الترويح عنها ، لكنهم علمونا أيضا أن لا نؤجل عمل اليوم الى الغد ولو عمى البصر منى وجف الريق ولـم يبق للعرق نبض .... لاننا ان طالبنا بالحقوق فيجب أن نؤدى الواجب عـلى أحسن وجه شكرا لكم جميعا وشكرا للمعلم الذى كـاد أن يكـون رسـولا .. (فانا اليوم أحسن القراءة لكننى منذ زمان لم أعد أحسن الاستماع لاننى أصبحت بالتقزز ومرض الصراحة ... أصرخ بأننى اختنقت من كلامكم جميعا ... وصار الحديث زعافا وكل ناظرى وأروم اليوم أن أدور كالدوامة فى كل شارع وأنظر للخلق فلتحكموا على بالسلبية ...

شكرا لكم وشكرا للاستاذ الذى كاد أن يكون الاها فلقد علمنى اننى اذا تكلمت فالوقوف على واجب وأن أقول لانت أنتم ... وأن كان فعل ماض ناقص ولا يمكن أن يكون وأن ضرب وقتل وجرح على وزن فعل وكافح على وزن فاعل مسطول على وزن مفعول ... واذا أخطأنا فخمسة أعداد تنقص من معدلاتنا ... درجات مجردة تسند الينا ... نخاف منها ونسعد ... ونرتعش من نقصانها وتطير قلوبنا من الفرح ان زادوا لنا فيها ... ما أغبى ما كنا ...

شكرا لكم جميعا ... لادع الدورة الدموية تسير باعتدال ولاطلق لسـاقى العنان ... فقد شلتا من الجلوس .. عشرون عاما وأنا جالسة كالخشبة على الخشب وأمام النظرات الخشبية ... أسمع باسراف وأنظر باسراف ...

سلمت أمرى للريح ... لاتحرك ... فقد تجمدت دمائى أمسح الشـوارع بنعلى ... وأنظر اسير فى كل مكان وفى المدينة العتيقة اسير كل يوم تعرفنى

حيطانها اعرفها لا تنفر أرضها من أقدامى ... روائح البخور والحنـاء تعبـق منها وأضواء خافتة كالبهت القمرى كوجهك الطفولى ... المدينة العتيقة تعرفنى كما عرفت أنا « رسالة الغفران » و « جنة الشوك » ... أذكرك فيها كل يوم ... أحس بخطاك رغم آلاف الاقدام التى تطأ الارض .. أتحسس بقايا نعليك ... كنت تحب التسكع أيضا . تختلط فى أنفى روائح العطر والبخور والحناء وزيت الزيتونة فأذكرك أكثر ... كأنما أتنشقك فيها ... كأنما يصعد الند الى دماغى فيمسح عنه غبار الكتب المزقة التى ابتلعت .... فأراك جليا ... كنت طفوليا... كان جبينك كالاسطورة ... وفى عينيك بريق بنفسجـى أو خضـرة كبحـر تشرينى ... كنت تكره الكتب .. لكنك قرأت منها الكثير ... كأن كل ما فيك طفوليا .. ولكنك كنت تحسن لمس يدى ... وتبعث فى نفسى شعورا عميـقـا بالالم ، لاننى أعلم ما فى عالم الغيب عن مصيرنا .... كانت سبابتك اليسرى تحمل جرحا قديما .... حدثتنى عن أصله ... لكننى أنسى دائما ذلك .... أداعبه .... ثم أحس فجأة بالفتور .... فأرجع أمضغ الشعر ... وأبحث عن عـالم ياقـوتى .. ألم تقـل لى ذات يـوم بأننى مسـرفة فى كـل شىء ، فى الحزن ... وفى الخيال ... وفى النظر الى العالم ... وبأننى سموت الـوهـاد وعلوت الاشياء الغامضة والمبهمة ... كونت فى خيالى أسطورة صنعتها بنفسى ولنفسى ... واننى انكفأت أعجب ... وأحب الكمال والعظمة وأحب الله ... وأمل وأتـألم ، لكننى كنت أيـوبة أتحمـل الكثيـر ..!! لكنك تنعتنى دومـا بالاسراف .... كنت أضحك من كلامك ... كنت ترسله كالبرد دقيقا مسبوكا طفوليا ... لانك لا تعلم سر اسرافى .... لا تعلم أن الجفاف الذى عاشت فيه أصابعى ... والشمس التى قبلتنى أعواما عديدة ... علمتنى أن أكون شديدة مسرفة فى الشدة علمتنى ريح السموم حمالة الرمل كالابر تخز الوجوه أن أكون قاسية ... لكن نسيم الليل صيرنى رخاء ... حنانا يدفق ... يطغى ... يغشى ، وكان القمر الذى حملقت فى هالته علمنى الحـب والجمـال ، ولكنه كان حبا بفيضان ، وحنانا بفيضان ، وقسوة بفيضان .

لم أتعلم يوما أن أكون وسطـا بين البغض والحـب ، صلـة بين القسـوة والحنان لان الارض فى ربوعنا كانت كذلك جافة الى حد تطاير الغبار وموت البهائم وهجرة الطيور أو سيلا تدفق ونهرا طمى وعلا وغمر .... به تنتعش الارض وتزهر وتلد برسيما وفلا .. وتصفر الاطيار فى كل ثقب من الجبل العريض العالى .. ألم تعلم ... سر اسرافى بعد ...

أدع اليوم الكتب بعد أن كنت أبتلعها ... أليس هذا اسرافـا ... أسيـر فى الريح الضارى والناس فى مكامنهم أليس هذا اسرافا ... وأطـأ المـدينة

العتيقة .... ولكنني أحبها باسراف ... كما أحببتك باسراف .. وكما كنت أنت غبيا باسراف . حدثوني عن عيني كثيرا ، عبدوني بشغف كبير ، قالوا عن عيني كلاما كثيرا ... فبصقت في وجوههم أليس هذا اسرافا ... قالوا ان عمق عينيك كعمق الآبار والوهاد ... والصوت البعيد ... لكنني لما نظرت فيهما لم أر الا سوادا حالكا وأحزانا عديدة . ولكنني عندما أضحك يضحك في كل شيء . وورثت صوت أمي كان صافيا ... صفاء الماء والقمر والنسيم ... ولكنني ان صرخت أفزع ... تسري القسوة في وفي صوتي ... تأتيني .. قسوة الارض الجافة تنصب في صوتي .. كنت هكذا ... انسانا كالكل ولكن بشيء من الاسراف ... لانني لم أكن أقنع بما يقنعون كنت ان ناموا وصمتوا ... خرجت أتكلم ... أسأل الارض عن سبب ثبوتها وثباتها ... عن الماء يأتي فلا يتبدل ... تبلعه الارض ويجتمع في الوادي فلا يتوقف ...

تأملت الشجر في خريفه وشتائه وربيعه ... لم يكن متشائما أبدا ... كان يتحمل العري والبرد ، يقف للريح سمومها فتصفر في اعماقه وتكسره لكن الاغصان تتعانق وتنتظر الشمس والماء وتبسم البراعم وتفتر عن حرير وردي نضر ورائحة عبقة ، لكن ذلك كان باسراف، قرأت كثيرا عن الاقطار عن الامم تأتي العالم فتبني وتكون ... ثم تضمحل في فوهة الزمن ... قرأت عن الجوع ... عن الحروب فاشمأزت نفسي سمعت أن أنهارا حمراء تسيل ... فأحسست أني لفرط الالم أكاد أبلع لساني ... وكنت أشقى ... أتألم لبسمة الطفل تذوب بين أكوام التراب المهدوم في فلسطين وفي فيتنام ... وعن الافارقة السود ... قرأت الكثير الى حد التدهور والذوبان وحاولت وأنا مستلقية أن أعد الاموات ... لا بل كم تحت التراب من يد لانسان .. لطفل .. لعامل ... لكل انسان يدان وفي كل خمسة أصابع ... مائة .. ألف .. لا .. يمكن العد ... كم هدم الانسان من انسان أليس هذا اسرافا ... وتمنيت أن تكون لي يد سحرية أمدها فأبعث الناس من تحت الانقاض ... أليس هذا اسرافا في الحلم ... وأن أحطم الاسلحة فأذروها وتندثر ... وأحول شيئا ما في عقل الانسان المسرف لكي ينسى كيف تصنع الرشاشة والدبابة ... أليس هذا اسرافا ... والناس الآن يحشرون رؤوسهم في الكتب باسراف فأضحك أنا منهم باسراف ... لانك لم تعنى علي أن أكون معتدلة ... بل اكتفيت بأن تحكم علي ... فكنت غبيا باسراف ... فأنا اليوم أتسكع فلتحكموا على بالسلبية .... ولكن دون اسراف ....

فوزية علوي

النهــر الأزرق

للشاعر البوغسلافي : ديزدار
تعريب : محمد مويتش

لا أحد يعرف اين هو
نحن نعرف عنه قليلا ، ولكنه معروف
وراء الجبال ، وراء السهول
وراء سبعة ــ وراء ثمانية
ثم هو بعد بعيد ــ ثم هو بعد أبعد
عبر مره ــ عبر وعره
عبر القتاد ــ عبر الأشواك
عبر القيظ ــ عبر الضيق
خلال الظنون ــ خلال الشكوك
بعد تسعة ــ بعد عشرة
ثم هو بعد أعمق ــ ثم هو بعد أقوى
وراء الصمت ــ وراء

حيث لا تغنى الديكة
حيث لا تسمع صوت القرن الأجوف
ثم هو بعد أسوأ ــ ثم هو بعد أبله
وراء العقل ــ خلف الرب
هناك نهر أزرق
عريض هو ــ عميق هو ــ
عرضه مائة عام
عمقه ألف سنة
أما عن طوله فلا تحلم
هناك نهر أزرق
هناك نهر أزرق
وعلينا أن نعبره

التعريف ببدر الدين القرافي

بقلم : أحمد الشتيوي

ـ 2 ـ

II. **الفقـــه :**

1 ـ **الشـــروح :**

أ ـ شرح الموطأ لمالك ذكره التنبكتى (32) والبغدادى (33) لم نعثر عليه فى فهارس المخطوطات التى لدينا .

ب ـ شرح مختصر ابن الحاجب ذكره التنبكتى (34) والبغدادى (35) .

ج ـ شرح مختصر الشيخ خليل ذكره حاجى خليفة (36) الذى ذكر اسمه « عطاء الجليل فى شرح مختصر الشيخ خليل » وذكره التنبكتى **بهذا العنوان**

---

(32) نيل الابتهاج ص 342 .

(33) هدية العارفين للبغدادى طبع مكتبة المثنى بغداد 1955 ج 2 ص 263 .

(34) نيل ص 342 .

(35) هدية العارفين 2 / 263 .

(36) كشف الظنون 2 / 1628 .

« عطاء الله الجليل الجامع لما عليه من شرح جميل » (37) وذكره شربونو (38) بنفس العنوان . ورأينا أن القرافى قد تعرض الى مختصر خليل الا أنه لم يذكر أنه شرحه (39) ولا نستبعد أنه شرحه .

د ـ « شرح التهذيب » قصد فيه تعيين المشهور خصوصا ما ذكره أبو الحسن فى التقييد من الخلاف » هكذا قال التنبكتى (40) وذكره أيضا البغدادى (41) .

2 ـ فقه المسائل :

أ ـ « رسالة فى مخرج حديث لولاك ما خلقت الافلاك » فرغ من تأليفها فى آخر جمادى الاولى 997 هـ (أفريل 1589 م) وهى تقع فى مجموعة فى مجلد (بقلم عادى) أغلبها بخط الشيخ على أبى الليل بن سليمان بن سعد ، آخر صحيفة منها رقم 771 . ورسالة القرافى هذه تقع من صفحة 353 الى صفحة 360 ، رقم متسلسل 23 اسم الفن : مصطلح ورقم المجموعة نس 50 ج 1 ن خ 34 ن ع 5254 (42) .

ب ـ رسالة أجاب بها عن سؤال رفع اليه فى « أن من وقف عليه يجوز له أن يسقط حقه فيه لشخص آخر فى مقابلة دراهم يأخذها منه أو لا » ـ أولها بعد الديباجة « وقعت حادثة كثير وقوع مثلها لمصر : المحروسة الخ » نسخة ضمن مجموعة فى مجلد بخط المؤلف سنة 1004 هـ (1595 م) من ورقة 73 الى 75 ومسطرتها 15 سطرا ـ 22 سم (854 مجاميع) زكى 41744 (43) .

ج ـ « شرف البدر بضياء ليلة القدر » ألفه سنة 987 هـ (1579 م) جمع فيه أقوال أهل التفسير فى سورة القدر ، ورتبها على سبعة أوجه أوله « الحمد لله الذى شرف هذه الامة ... الخ » (44) .

---

(37) نيل ص 342 .
(38) المجلة الآسوية (بالفرنسية) سنة 1859 ص 94 ـ 95 .
(39) انظر تعليق 17 .
(40) نيل ص 342 .
(41) هدية العارفين 2 / 263 .
(42) فهرست الخديوية الجزء السابع القسم الاول ص 58 ـ 59 .
(43) فهرست المكتبة الازهرية ج 2 ص 346 .
(44) كشف الظنون 2 / 1045 .

د ـ الدر الفريد فى الكلام على مواضع من كلام الله المجيد وما لبعض المفسرين مما يحتاج الى نظر سديد لعون الله الحميد » يقع فى 161 ورقة ، به بياضات كثيرة خطه أحيانا ردىء وأحيانا جيد ، وهو فى تفسير القرآن الكريم يبتدىء بقوله : « الحمد لله الذى أنزل كتابه الكريم ... » (45) .

وهناك مجموعة رسالة للقرافى كتبت بخط جميل وواضح (46) .

1 ـ الدرة المنيفة فى الفراغ عن الوظيفة ، أوله الحمد لله المنعم على من اختص فى حبه ... من ورقة 1 الى 8 ، وموضوع الرسالة : بيع الوظيفة هل يصح أم لا ؟

2 ـ الجواهر المنشرة فى هبة السيد لأم الولد والمدبرة أوله : الحمد لله الذى جعل العلماء ورثة الانبياء من ورقة 9 الى 14 وموضوعها الهبة .

3 ـ الابانة فى صحة اسقاط ما لم يجب من الحضانة (47) أوله : الحمد لله المنعم على من التزم بحقوقه بمزيد الافضال . وهى رسالة فى فصلين وخاتمة وموضوعها الحضانة من ورقة 15 الى 38 .

4 ـ كتاب إحكام التحقيق فى أحكام التعليق (48) أوله : الحمد لله الذى أمر عباده المؤمنين الوفاء بالعقود ، وهو كتاب يتكون من 5 فصول وخاتمة ، يقع من ورقة 39 الى 55 وهو فى العقود .

---

(45) دفتر المكتبة الاحمدية ج 1 ص 27 رقمه 11167 .

(46) مجموع مخطوط بالمكتبة الاحمدية بتونس رقم 14680 ، وهناك نسخة ثانية تحت رقم 16818 ، خطها متوسط ومتأخرة النسخ ، وهناك نسخة فى المكتبة الخديوية رقمها : نس 5 ج 1 ن خ 195 ن ع 5410 ـ انظر الفهرست الخديوية القسم الاول الجزء السابع ص 247 .

(47) هناك نسخة ثانية من هذه الرسالة فى المكتبة الاحمدية بتونس تحت رقم 14679 خطها متوسط وهى موجودة فى مجموع مفقود تحت رقم 3227 .

(48) هناك نسخة ثانية لهذه الرسالة مع رسالة « الابانة فى صحة اسقاط ما لم يجب من الحضانة » بالمكتبة الاحمدية بتونس رقم 15025 وهو مجموع ردىء الخط .

5 ـ كتاب الدرر النفائس فى شأن الكنايس ، أوله : الحمد لله الذى أعز الاسلام وأعلا مناره وهو فى فصلين وخاتمة ، وموضوعه الحكم فى الكنائس من ورقة 56 الى 69 .

توشيح الديباج :

وأهم أثر وصلنا لبدر الدين القرافى هو كتاب : توشيح الديباج وحلية الابتهاج . ونحب أن نقدم بسطة حول هذا المؤلف .

فقد ذكره التنبكتى (49) فقال : « ذيل على الديباج فيه نيف وثلاثمائة شخص فى خمسة كراريس » . وذكره المحبى (50) قال : ذيل الديباج لابن فرحون فيه نيف وثلاثمائة شخص فى أربعة كراريس أو خمسة وذكره حاجى خليفة (51) فقال : « توشيح الديباج وحلية الابتهاج » وذكره البغدادى (52) فقال : « توشيح الديباج وحلية الابتهاج فى طبقات المالكية فى ذيل الديباج ذكر فيه ثلاثمائة من العلماء » وذكره شربونو فى المجلة الآسيوية (53) فقال : « ذيل الديباج فى ثمانية كراريس وتحتوى على 304 ترجمة والنسخة التى أشار اليها شربونو هى على ملك حمودة بن الفكون .

وصف النسخ :

حسب المراجع التى لدينا تمكنا من ضبط أربع نسخ من توشيح الديباج :

---

(49) نيل ص 342 .

(50) خلاصة الاثر ج 4 ص 258 .

(51) كشف الظنون 1 / 762 .

(52) هدية العارفين 2 / 263 .

(53) انظر المجلة الآسيوية (بالفرنسية) سنة 1859 ص 94 . وكان قد تحدث عنه قبل ذلك فى نفس المجلة (سنة 1 / 1853 ص 93 ـ 100) عند الحديث عن كتاب نيل الابتهاج وقد ذكر أن الدافع لتأليف نيل الابتهاج انما هو التوشيح .

1 ـ نسخة فى القاهرة وقد ورد التعريف بها فى فهرست المخطوطات (54) قال : توشيح الديباج وحلية الابتهاج وهو ذيل على الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون أوله بعد الديباجة : « الحمد لله الحى الباقى على الدوام ... الخ » ، نسخة بقلم معتاد بخط قاسم بن قنديل بن عبد العزيز الشقيرى فرغ منها سنة 1122 هـ (1710 / 1711 م) وبها أكل أرضة ، فى 189 ورقة ، ومسطرتها 17 سطرا رقمها 10245 ح .

2 ـ نسخة فى الرباط (55) توشيح الديباج رقم 169 (الاوقاف) خط مشرقى جميل ص 177 ـ 26،5 / 16 أوله : باسم الله ... الحمد لله الحى الباقى ، آخره مشتمل على خلاصة ما فى مدارك القاضى عياض وديباج ابن فرحون مع ما ينظم الى ذلك مما هو لغيرهما بعد نزل من لم تشتهر معرفته ولم تظهر بين ذوى الفضائل رتبته .. (غير مؤرخ) .

3 ـ نسخة باريس : ذكر دى سلان نسخة لتوشيح الديباج (56) وقد تمكنا من الحصول عليها مصورة (57) وعليها اعتمدنا فى المقارنة بينها وبين نسخة مكتبة الاحمدية بتونس .

4 ـ نسخة تونس (58) وهى من خط المؤلف اذ نجد فى الصفحة « بخط مصنفه » فضلا عن التصحيحات الكثيرة التى توجد على الهامش ولذا يمكن أن نعتبر هذه النسخة مسودة الكاتب . ومما يزيدنا اقتناعا أن القرافى كان يضيف بعض الملاحظات لبعض التراجم ، والاضافات والاصل من نفس

---

(54) فهرست المخطوطات ، نشرة المخطوطات التى اقتنتها الدار من سنة 1936 الى 1955 ، القسم الاول (أ ـ س) تصنيف فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار الكتب مطبعة دار الكتب ـ القاهرة 1961 .

(55) وقف عليها الاستاذ سعد غراب الذى أشرف على هذا العمل وتفضل بمدنا بهذه المعلومات .

(56) فهرست المخطوطات العربية (بالفرنسية) لدى سلان رقم 4627 . قال فى وصفها : 96 ورقة 21 × 12 سم ، 21 سطرا ، والمخطوط من القرن السادس عشر للمسيح ، ولعل هذه هى النسخة التى ذكرها شربونو فى المجلة الآسيوية .

(57) وهى تتكون من 96 ورقة خطها جميل غير مؤرخة وهى التى ذكرها دى سلان لانها تحمل نفس الرقم ونفس الاوصاف

(58) فهرست المكتبة الاحمدية بتونس ص 425 ورقم النسخة 13767 .

الخط . خط هذه النسخة واضح وجميل مقاسها 26 × 18 وتتكون من 75 ورقة فيها 304 ترجمة (59) وهى نسخة كاملة ليس بها تآكل ما عدا فى الورقة الاولى .

نجد فى الصفحة الاولى منها الكتابة التالية : توشيح الديباج وحلية الابتهاج ذيل طبقات المالكية ، جمع العبد الفقير الى الله سبحانه محمد المدعو بدر الدين القرافى لطف الله به ، وتحت ذلك نجد التحبيس والمالكين لهذه النسخة .

أما فى الصفحة الثانية فنجد الديباجة وفيها يتحدث عن السبب الدافع لهذا التأليف ، ثم المقدمة وهى فى القوانين التى يجب مراعاتها عند الترجمة ثم المتن (60) ويختم هكذا : « هذا آخر ما تيسر جمعه وترتيبه وتحصل ضمه وتهذيبه بعد ملاحظة الاختصار والتجافى عن طريق الانتشار وذلك لاستعجال الباعث لهذا الامر والمحرك لهذا القدر ، وفيه حصول التعريف فى الجملة ، وارجو الله سبحانه وضع كتاب حافل فى هذا المرام يشتمل على ذكر مشاهير الاعلام من لدن الامام مالك بن أنس رضى الله عنه وأرضاه الى هذه الايام مشتملا على خلاصة ما فى مدارك القاضى وديباج ابن فرحون مع ما ينظم الى ذلك مما هو لغيرهما بعد ترك من لم تشتهر معرفته ولم تظهر بين ذوى الفضائل رتبته ... »

وهذه النسخة هى أيضا غير مؤرخة ، بقى أننا نرجح أن القرافى قد ألفها فى أخريات أيامه اعتمادا على ما وعد به من وضع كتاب حافل فى هذا المرام يشتمل على ذكر مشاهير الاعلام الا أن المؤرخين لم يشيروا الى أنه وضع مثل هذا التأليف ، فلعل الموت عاجله .

سبب التأليف :

حدثنا القرافى فى مقدمة كتابة عن الاسباب التى دفعته الى التأليف ، فذكر أن بعض اخوانه طلب منه أن يضع من مطالعاته ذيلا على كتاب العلامة ابن

---

(59) بعض هذه التراجم لا يتمثل الا فى الاسم . وهذا يبين أن القرافى كان يؤلف هذه التراجم من مصادر متعددة شيئا فشيئا . انظر ترجمة عبد الرحمان الحريرى مثلا رقم 107 من تحقيقنا وغيرها .

(60) نلاحظ أن المقدمة قصيرة وهى فى الحديث عن فائدة التاريخ ويظهر لنا أن القرافى سار سيرة معاصريه فى هذا الميدان .

فرحون المدنى المسمى بالديباج ... وشرط عليه أن تكون الترجمات وجيزة ومرتبة ترتيبا حسنا ويكون أسلوبها اسلوبا لطيفا . وقد حاول عدم الاستجابة الى هذا الطلب نظرا لما كان « عليه من العوائق » ولسنا ندرى ما نوع هذه العوائق سوى أننا نرجح تقدم سنه واشتغاله بالقضاء ، لكن الطالب ألح حتى استجاب بدر الدين قاصدا من وراء ذلك الافادة وحسن الدعاء (61).

منهجـــه :

ذكر القرافى طريقة عمله فى المقدمة فأوضح أن الترتيب يكون حسب الطريقة المعروفة أى ترتيب الاسماء « على حروف المعجم ليسهل به كشف ما أعجم » ثم أشار الى أنه لا يترجم الا لمن « اشتهرت كمالاته وخفقت على رؤوس الملا راياته » ثم ذيل كل حرف بتتميم ينبه فيه على من أغفله صاحب الديباج ، وختم كل ذلك بالاعلام الذين اشتهروا بالكنى .

من خلال المقدمة نلاحظ أن القرافى لا ينهج نهجا جديدا فى فن الترجمة وربطه بالتاريخ فهو يتخذ موقف السالفين من المؤرخين وكتاب السيرة فقد استشهد بأقوال الحافظ أبى شامة (62) فى أن رواية الاخبار انما هى للاعتبار والاتعاظ ثم أشار الى رأى الولى العراقى (63) فى أن التاريخ يصحح الاخطاء ويذكر فائدة ثالثة للتاريخ اعتمادا على ما ذكره الصلاح الصفدى (64) فى أول تاريخه : « وربما أفاد التاريخ حزما وعزما وموعظة وعلما وهمة تذهب هما وبيانا يزيل وهنا ووهما ... »

فالقرافى لم يستطع أن يكون فكرة واضحة من التاريخ واختلافه عن الترجمة والسيرة . وهذا أمر طبيعى فقد ذكرنا فيما تقدم أن القرافى صورة للقرن العاشر للهجرة .

---

(61) نلاحظ أن بث العلم كان وظيفة دينية تعتبر فرضا على المسلم .
(62) عبد الرحمان أبو شامة ، محدث ومؤرخ ومفسر (599 هـ / 1202 م — 665 هـ / 1267) معجم المؤلفين 5 / 125 .
(63) أحمد العراقى فقيه (ت 908 هـ / 1502 م) معجم المؤلفين 1 / 296 .
(63) أحمد العراقى فقيه (ت 908 هـ / 1502 م) معجم المؤلفين 1 ٪ 296 .
(64) صلاح الدين الصفدى مؤرخ وأديب (ت 764هـ/1263م) معجم 114/4

واهتم القرافى بمسألة أخرى اثناء تحديد طريقته فى الترجمة هى مسألة تزييف الاخبار والتزيد فيها فاعتمد فى ذلك على رأى تاج الدين السبكى (65) الذى ذكر أربعة شروط تعصم المؤرخ من الخطا .

ثم حدد القرافى ، فى تقديم التوشيح ، كيفية التعريف بالمترجم لهم وهو أسلوب تقليدى ذكره الصفدى فى أول تاريخه قال : يبدأ فى التراجم باللقب ثم بالكنية ثم بالاسم ثم بالنسبة الى البلد ثم الى الاصل ثم إلى المذهب فى الفروع ثم الى المذهب فى الاعتقاد ثم الى العلم والصناعة والخلافة والسلطنة والوزارة والقضاء والامرة والمشيخة كلها تقدم على الجميع ...

وان كانت طريقة الترجمة تقليدية ومألوفة فاننا مع ذلك نلاحظ حرص بدر الدين على الصدق وتصحيح أخبار المترجم لهم فقد أشار فى المقدمة أنه لن يذكر من علماء المغرب الا من وصلت كتبه اليه أو وقف على اسمه ضمن المصنفات الفقهية أو الاستدعاءات ... ثم انه لا يتغافل عن ذكر مصادره الا أحيانا يسهو فيها ..

مصـــادره :

ذكر القرافى فى المقدمة بعض المصادر التى اعتمد عليها فى ترجماته ، وذكر بعضها الآخر فى المتن . وأول ما يظهر لنا من مقارنة هذه الكتب بالتوشيح محاولة الاعتماد على منهج . فى جميع الترجمات مع الاختصار والتدقيق . والتأكيد على الخطوط الكبرى لحياة المترجم له .

وأكبر ميزة للتوشيح بالنسبة لهذه المصادر هى محاولة الوقوف على مؤلفات المترجم لهم وتقييمها أحيانا . وأهم مصادر التوشيح هى التالية :

أحمد بن حجر العسقلانى (66) :

---

(65) تاج الدين ـ فقيه مؤرخ (727 هـ / 1327 م ـ 771 هـ / 1370 م) .

(66) شافعى المذهب ، محدث ومؤرخ وأديب زادت تصانيفه التى معظمها فى الحديث والتاريخ والادب والفقه على 150 مصنفا (773 هـ / 1372 م ـ 852 هـ / 1448 م) معجم المؤلفين 2 / 20 .

1 ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (67) .

2 ـ أنباء الغمر بأنباء العمر (68) .

3 ـ رفع الأصر عن قضاة مصر (69) .

4 ـ ثبت ابن حجر (70) .

محمد السخاوى (71) :

5 ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (72) .

6 ـ الذيل على رفع الأصر (73) .

عبد الرحمان السيوطى (74) :

7 ـ نظم العقيان فى أعيان الأعيان (75) .

---

(67) توجد منه الاجزاء الاربعة الاولى ، يقف عند حرف الميم وهو من تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ طبع دار الكتب الحديثة ـ لم يذكر سنة الطبع .

(68) يتحدث فيه صاحبه عما وقع بين سنتى 773 هـ و 850 هـ ، من الحوادث والاخبار وفيه ترجم لبعض الاعيان من العلماء والسلاطين ، وهو كتاب يقع فى ثلاثة أجزاء ، الاخير غير موجود والجزء الثانى بقف عند وفايات 815 هـ ـ طبع الجزء الاول سنة 1969 والثانى 1971 .

(69) يقع فى ثلاثة أجزاء ، لم نجد منه الا الثالث وهو خاص بالقضاة .

(70) يظهر أنه ما زال مخطوطا انظر فهرس المخطوطات ص 188 وفهرست المخطوطات العربية ص 563 .

(71) فقيه شافعى مقرىء محدث مؤرخ تآليفه تنوف على أربعمائة (831 هـ / 1427 م ـ 902 هـ / 1497 م) معجم 10 / 150 .

(72) منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ، لم يذكر اسم المحقق ولا سنة الطبع ، يقع فى 12 جزءا .

(73) تحقيق جوده هلال ومحمد محمود صبح ، طبع الدار المصرية للتأليف والنشر .

(74) ويعرف أيضا جلال الدين ، عالم مشارك فى أنواع من العلوم مؤلفاته تفوق خمسمائة (849 هـ / 1445 م ـ 911 هـ / 1505 م) معجم 5 / 128 .

(75) ذكره القرافى أعيان الاعيان ، وهو يتضمن مشاهير القرن التاسع للهجرة فى مصر وسورية وسائر العالم الاسلامى ، حققه الدكتور فليب حتى ، نشر مكتبة المثنى بغداد .

8 ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة (76) .
ابراهيم بن فرحون (77) :

9 ـ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (78) .
عبد الوهاب الشعرانى (79) :

10 ـ الطبقات الكبرى (80) .
أحمد الغبرينى (81) :

11 ـ عنوان الدراية فى من عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية (82) .
محمد بن غازى (83) :

12 ـ تكميل التقييد (84) .

13 ـ التعلل برسوم الاسناد بعد ذهاب أهل المنزل والناد (85) .

---

(76) جزآن تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة أولى .
(77) انظر ترجمة رقم 1 من تحقيقنا .
(78) الطبعة الاولى سنة 1329 هـ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر وبهامشه كتاب نيل الابتهاج للتنبكتى ونلاحظ أنه يصعب البحث فيه لفقدان الفهارس منه ، وهو كتاب تراجم لعلماء المذهب المالكى ، وكثيرا ما يذكره القرافى بالاصل .
(79) اشهر متصوفى القرن السادس عشر للميلاد قرأ على السيوطى والانصارى ويعرف أيضا بالشعراوى .
(80) وتسمى أيضا : « لواقح الانوار فى طبقات السادة الاخيار » وهو يترجم للمتصوفين ـ مطبعة عبد الرزاق سنة 1305 هـ .
(81) انظر ترجمة 43 من تحقيقنا .
(82) تحقيق رابح بونار ، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1971 .
(83) إمام فى جامع القرويين وفقيه توفى أوائل القرن السادس عشر .
(84) يقع فى أربعة أجزاء مخطوط فى المكتبة الاحمدية بتونس من رقم 15157 الى 15160 ، انظر دفتر قائمات الكتب بالمكتبة الاحمدية ج 1 ص 175 .
(85) مخطوط بمكتبة الرباط .

14 ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عما تضمنته فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب (86) .

قيمة توشيح الديباج :

إن توشيح الديباج هو أحد ذيلين وضعا على الديباج لابن فرحون والآخر هو نيل الابتهاج بتطريز الديباج (87) الذى اعتمد فيه صاحبه على التوشيح وذكره مرات . ولعل القرافى هو الذى دفع أحمد بابا الى وضع ذيله ، وبصفة عامة يمكن أن نرى فى التوشيح الفوائد التالية :

1 ـ ان التراجم التى وردت فيه موجزة مختصرة مبنية أساسا على ذكر سنة الميلاد ثم حياة المترجم له ثم مؤلفاته وأخيرا وفاته ومكان دفنه إن أمكن ، كل ذلك فى منهجية واضحة وترتيب محكم فلا نقع على ترجمات طويلة الا نادرا (88) .

2 ـ محاولة الاخذ عن مصادر متعددة والمقارنة بينها (89) وقد حاول أن يطبق هذه الطريقة فى أكثر الترجمات .

3 ـ زيادة عما ينقله عن المصادر التى اعتمد عليها ، كثيرا ما يضبف اطلاعاته خاصة فى الوقوف عن آثار المترجم لهم (90) .

---

(86) كتاب فقه فيه فتاوى كثيرة وهو مخطوط بالمكتبة الاحمدية بتونس رقم 18355 ورقم ج 1800 ، وطبع بفاس ، المطبعة الحجرية ، 12 جزءا سنة 1315 هـ ، انظر مصادر ، ومراجع لدراسة الفقه المالكى والامام ابن عرفة منشورات دار الكتب الوطنية بتونس .

(87) نيل الابتهاج بتطريز الديباج تأليف احمد بابا التنبكتى (وهو تكميل لكتاب الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب تأليف ابراهيم بن فرحون اليعمرى) وهو بالهامش ، مطبعة مصر السعادة 1329 هـ جزء واحد تقريبا 382 ص .

(88) مثال ترجمة خليل رقم 75 من تحقيقنا .

(89) انظر مثلا ترجمة 43 .

(90) انظر مثلا ترجمة 27 .

4 ـ الامانة العلمية فى روايته فهو إن شك يستعمل عبارة « أظـن » (91) أو يذكر عدم وقوفه على تاريخ ميلاد المترجم له (92) وكثيرا ما يقارن المعطيات فيما بينها (93) .

5 ـ التعليق على قيمة آثار المترجم لهم ، خاصة المشهور منهـا (94) وهـذا يدل على اطلاعه وقدرته النقدية .

6 ـ ما انفرد به من ترجمة لبعض الاعلام خاصة شيوخه الذين درس عليهم وتأثر بهم وكانت هذه التراجم وافية واضحة (95) .

7 ـ كتب الاسم الذى اشتهر به المترجم له بلون أحمر فى الهامش وهـذا يؤكد ميل الكاتب للتبسيط . فكأن توشيح الديباج كتاب مدرسى .

ونلاحظ أخيرا أن القرافى حاول أن يكون أمينا فى نقله عن المصادر فقليلا ما نجد اختلافا أو تضاربا بينه وبين هذه المصادر ، وحاول أن يكـون كتـابه سهل المراجعة .

الخـاتمـة :

لقد حاولنا أن نبين آنفا أن القرافى الذى عاش فى القرن العاشر للهجرة كان صورة للعصر فى مصر ، وأن تآليفه القليلة التى وصلتنا كانت ترجمانا لمشاغل أهل عصره فى المستوى الثقافى وفى المستوى الاجتماعى ايضا ، وإذ لم نعمد الى التعمق فى هذين الامرين فاننا قد أشرنا بسرعة اليهما ولا يخفى أن غايتنا الآن انما هى التعريف ببدر الدين القرافى والتعريف بأهم آثـاره وهو كتاب : توشيح الديباج ، وتمييزه بالخصوص عن القرافى المشهور (96) صاحب « أنواع البروق فى أنواء الفروق » وهو كتاب فى الفقه المالكى .

---

(91) انظر مثلا ترجمة 73 التى قال فيها ولم أقف على تاريخ مولده .
(92) انظر مثلا ترجمة 78 .
(93) انظر مثلا ترجمة 75 .
(94) انظر التعليق أعلاه .
(95) انظر مثلا ترجمة 78 .
(96) هو شهاب الدين أبو العباس أحمـد بن ادريس (628 هـ / 1228 م ـ 684 هـ / 1285 م) فقيه وأصولى مصرى صنهـاجى الاصـل . معجـم 1 / 158 .

أصداء الفكر

● **شرف لمحمد مزالي ولتونس وللعروبة :**

جاء في جريدة الصباح التونسية الصادرة بتاريخ الاحد 14 أكتوبر 1979 :

« سرنا كثيرا أن طالعنا اسم السيد محمد مزالي عضو الديوان السياسي ووزير التربية القومية بين أسماء الرجال المشاهير الذين تتركب منهم اللجنة الشرفية للجمعية الدولية لمقاومة العنف في الملاعب وتضم هذه اللجنة ملك اسبانيا والدوق ادمبرة زوج ملكة بريطانيا وليوبولد سدار سنغور وهنري كيسنجر ومحمد مزالي واللورد كلايتون وعدة شخصيات عالمية أخرى .

إن اختيار السيد محمد مزالي لعضوية هذه اللجنة هو بالاضافة الى الاعتراف بكفاءاته وسمعته العالية ، تشريف لتونس واعتراف بجهودها في التكوين الرياضي السليم وتربية الشباب على أسس القيم الحضارية والاستقامة .

تهانينا الحارة للسيد محمد مزالي مع خالص تمنياتنا لان يوفق الله جهوده في هذا المستوى العالمي المشرف » .

ونحن بدورنا نهنىء الاستاذ محمد مزالي على نيل هذا الشرف الذي ينعكس على تونس والعروبة ونشكر أسرة الصباح على تعليقها على الخبر وهي تكاد تكون الوحيدة التي أولته ما يستحقه من العناية .

● **أول أطروحة لشهادة الدكتورا في الطب باللغة العربية :**

قدم الدكتور شمس الدين حمودة يوم الثلاثاء 16 أكتوبر 1979 بكلية الطب بتونس أول أطروحة لشهادة الدكتورا في الطب باللغة العربية حول المقالة في الماليخوليا للطبيب القيرواني اسحاق بن عمران وكانت لجنة التحكيم تتركب من الاساتذة سليم عمار وعبد الكريم بالطيب ورفيق بوخريص ومحمود يعقوب .

وكان هذا التقديم رائعا من طرف الدكتور حمودة والتعاليق دقيقة ومثرية من قبل الاساتذة الممتحنين ، وقد دل هذا العمل على اقتناع بأنه يجب المضي قدما في هذا السبيل وأن الاساتذة مقتنعون بأنه من الطبيعي أن يتم في المستقبل تقديم الاطروحات باللغة العربية .

ونحن اذ نبتهج بهذه الخطوة في سبيل احلال اللغة العربية مكانتها المرموقة في التعليم العالي فاننا نغتنم هذه الفرصة لنهنىء أساتذة الطب الذين حضروا على هذا العمل المشرف ونقول لهم الى الامام .

● **تحت ظل الشمس :**

هذه مجموعة شعرية للشاعر عبد العزيز طريفة صدرت له بمجهوده الخاص نشكره على هديته ونتمنى له اطراد الانتاج .

من وحي الفكر :

الاديب رشيد الذوادى الذى يراسل جريدة « المحرر » المغربية منذ اربعة أعوام تحت عنوان : « متابعات ثقافية من تونس » نشر أخيرا فى متابعاته الثقافية الاسبوعية كلمة ضافية عن كتاب : « من وحي الفكر » تأليف الاستاذ محمد مزالى

وفيها تعرض الكاتب رشيد الذوادى الى اهمية هذا الاثر الفكرى والى قيمة جميع فصوله التى ارتبطت بظروف تاريخية وسياسية معينة عاصرت فترتين من الجهاد فى تونس .. وقد صدرت الكلمة التالية فى جريدة « المحرر » بتاريخ 29 / 9 / 1979 .

كتاب « من وحي الفكر » فى طبعته الثانية يحتوى على 262 صفحة ، ويضم الى جانب مقدمة الكاتب ومقدمة الاديب البشير بن سلامة ، 125 فصلا مبوبة فى تسعة اقسام ، تناولت عديد القضايا الفكرية والسياسية والثقافية .

والملاحظ ان مجموع مواضيع هذا الكتاب هى مجموع افتتاحيات مجلة « الفكر » يقع نشرها فيما بين 1955 و 1968 .

وبالرغم من أن جميع هذه الافتتاحيات ظهرت فى فترات تاريخية متباعدة . الا انها ما زالت ملتصقة بواقعنا وبحياتنا المعاصرة ، ونجد فيها اصداء لآمال عريضة .

ان هذه الافتتاحيات التى احتواها كتاب محمد مزالى « من وحي الفكر » هى كتابات تواكب طموحات الشعب التونسى ، وتعبر عن طموحاته واحلامه . وتتحسس اذا ما طالعتها بامعان وروية انها تعبر عن جهادنا فى سبيل النهوض بتونس ، والدفاع عن مقوماتها الحضارية والثقافية .

وفى هذا الكتاب ، نادى محمد مزالى بجلاء الجيش الفرنسى عن وطننا ، وفيه بارك الجلاء الزراعى عن أراضينا ، وفى هذا الكتاب أيضا عبر محمد

مزالى أن « الحق يعلو ولا يعلى عليه » وأن « ارادة الشعوب لا تقهر » مهما تعددت أسباب الكبت والتضليل ، وأن « أمل الامة جذوة لا تنطفى » الخ ..

وهكذا تتبين من خلال رحلتك فى كتاب « من وحى الفكر » أن جميع فصول هذا الكتاب ارتبطت بظروف تاريخية وسياسية معينة عاصرت فترتين من الجهاد فى تونس ، الجهاد ضد الاستعمار والجهاد ضد التخلف من أجل كسب معركة التنمية والكرامة .

وقد ابرز البشير بن سلامة من ناحيته فى مقدمة الكتاب قيمة هذه المقالات من منظور عام .. يرى البشير بن سلامة أن هذه المقالات تعبر فى الحقيقة أكثر من غيرها عن التوازن البناء المثمر، اذ هى تمثل الصراع المكيف، الصراع الحى بين اسمى مقتضيات الفكر وأنبل دواعى الواقع ، ويقول البشير بن سلامة عن هذه المقالات :

« ان محمد مزالى نادى بالخروج من سجن الفكر والى عدم الانسياق مع الفلسفة التقليدية المكبلة للفكر .. انها فتح جرىء لاحلال المد الفكرى اليقظ المتحرر من سجن المذاهب المقننة والمحنطة » .

● أول عمل معجمى بتونس :

صدر أخيرا « القاموس الجديد للطلاب » الذى اشترك فى وضعه كل من الاستاذين بلحسن البليش والجيلانى بلحاج يحيى والمرحوم على بن هادية .

وقد أقام النادى الثقافى (أبو القاسم الشابى) بالوردية حفل تكريم تنويها بأول عمل معجمى تونسى وذلك مساء يوم الجمعة 12 اكتوبر 1979 .

نبارك هذا العمل الجليل الذى يستفيد منه الطالب والاستاذ على السواء . كما نبارك مجهود الاساتذة الذين قاموا به على أحسن الوجوه .

● اللغة العربية تخزن فى البنوك الاوربية :

بعد العمل الهادف الى خزن مصطلحات اللغة العربية كاداة عمل فى المحافل الدولية ـ من طرف مؤسسات أوربية وأمريكية فى مونيخ (المانيا) وفراسكاتى (ايطاليا) وباريس وكيبك (كندا) ومقر هيئة الامم المتحدة بنيويورك بتعاون مع مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى بالرباط ، جاء الان دور مكتب المصطلحات التابع لمنظمة دول السوق الاوربية المشتركة التى تود بتعاون مع مكتب تنسيق التعريب اضافة اللغة العربية الى اللغات المستعملة فى

السوق الاوربية المشتركة وهى الانقليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والدانماركية .

يقول مسؤول فى مكتب التعريب بالرباط : انه تم الاتصال بالجهات المعنية فى المكتب الاوربى ووقع تزويده بالمصطلحات اللازمة .

● **الدكتورة نجاح العطار تلتقى باعضاء اتحاد الكتاب التونسيين :**

بدار الثقافة « ابـن خلـدون » ومساء الجمعة 28 سبتمبر 1979 أقام اتحاد الكتاب التونسيين حفل استقبال تكريما لضيفة تونس الدكتورة نجاح العطار ووزيرة الثقافة والارشاد بحكومة الجمهورية العربية السورية الشقيقة . وقد حضر حفل الاستقبال جمع هام من رجال الادب والفكر والصحافة الى جانب الوفد المرافق للضيفة . وقد افتتح الحفل الـرئيس المسـاعد لاتحـاد الكتـاب التونسيين الاستاذ محمد العروسى المطوى بكلمة رحب فيها بالضيوف واشاد بالصلة المتينة التى تتجاوز الشكليات بين اتحاد الكتاب العرب بسوريا واتحاد الكتاب التونسيين كما أكد على أن الكتابة لم تعد مجرد متنفس للترويح وانما هى مسؤولية نشعر بها جميعا ونعمل على ايجاد المناخ الملائم لممارسة تلـك المسؤولية ومن اجل ذلك كانت اللقاءات بيننا متعددة .

كما تناول الكلمة الدكتور الحبيب الجنحانى مديـر ادارة الآداب بـوزارة الشؤون الثقافية .

وأحيلت الكلمة اثرها الى الضيفة الدكتورة نجاح العطار التى أشادت فيها بالحفاوة التى لقيتها فى تونس ونقلت للحاضرين تحية اخوانهم صانعى الكلمة فى سوريا ختمتها بقولها : « فأمة لا تزدهى بحملة الاقلام فيها ليست أمـة ، ولن تكون أبدا » .

واثر هذا كان الحفل اللطيف التى أقيم على شرف الضيفة حيث انفتح بين الاخوة الضيوف واعضاء اتحاد الكتاب التونسيين مجال للحوار وتبادل الآراء فى قضايا عديدة وهامة .

● **مزالى يضع مدخلا نقديا لكتاب « التعليم الهيكلى للعربية الحية » :**

« شهد تعليم العربية لغير الناطقين بها بعد الحرب العالمية الثانية ركودا نسبيا استمر حتى الستينات . ثم انتعش فى السبعينات وخاصة بعد حرب اكتوبر 1973 ، اذ سجل اقبال متزايد على تعلمها لا سيما فى أوربا بقسميها الغربى والشرقى وفى أمريكا الشمالية ، واصبحت العربية فى الفترة نفسها

لغة رسمية فى الامم المتحدة واليونسكو وغيرهما من المنظمات الدولية ولكن كما كان هذا الاقبال مما بعث على الشعور بالاعتزاز فانه يفرض علينا واجبات متأكدة اهمها العمل على تيسير تعليمها باستنباط طرق وأساليب جديدة عصرية ....

وانطلاقا من هذا الاعتبار اعد الاستاذ رضا السويسى هذا الكتاب القيم الذى ينم عن تمرس بتعليم اللغة وعن تفكير جدى فى الوسائل الكفيلة بتلقينها على الوجه الاكمل وعن المام بالتقنيات العصرية اذ جعل الحوار قائما على اساس التدرج الذكى ، وعلى اختيار محكم للنماذج واستعمال موفق للوسائل التربوية المجدية وانى اذ أبارك هذا العمل التونسى أدعو القائمين بتدريس العربية لغير الناطقين بها الى الاستعانة به فى اعداد دروسهم وفى مراجعة طرقهم بما يضمن للعربية ما هى خليقة به من انتشار وتوسع ..»

هذا بعض ما جاء فى المدخل النقدى الذى وضعه الاستاذ محمد مزالى مدير مجلة الفكر ووزير التربية القومية لكتاب **التعليم الهيكلى للعربية الحية (الجزء الاول)** للدكتور رضا السويسى الذى صدر أخيرا بتونس ونحن نهنىء الدكتور على هذا الكتاب الجديد الذى نعده فتحا فى مجال الالسنية الحديثة هذا العلم الذى ما زال فى بدايته ونتمنى له اطراد الانتاج .

● **حول آفاق التعاون والنهضة العربية الشاملة :**

أقام الاستاذ محمد مزالى مدير مجلة الفكر ووزير التربية القومية مأدبة عشاء بالدار المغربية بقرطاج (20 أكتوبر 1979) مأدبة عشاء على شرف أعضاء المجلس الادارى والامانة العامة لاتحاد الاطباء العرب الموجودين بتونس بمناسبة انعقاد مؤتمر الاطباء العرب .

وصاحب هذه المأدبة محاضرة ألقاها الاستاذ محمد مزالى حول آفاق التعاون والنهضة العربية الشاملة وبين بصورة جلية واضحة ما قامت به تونس أثناء كفاحها للاستعمار من أجل أن تبقى عربية مسلمة وأن تساهم فى النهضة العربية . ثم وضح الشروط الاساسية التى بها يلتئم التعاون بين العرب ويشتد وأفاض فى بيان مقومات النهضة العربية مركزا على ما يجب أن يقوم به العرب فى مجال توحيد برامج التربية حتى تنشأ الاجيال العربية على نسق واحد من التكوين .

وكان الدكتور حمودة بن سلامة الكاتب العام المساعد لاتحاد الاطباء العرب ونائب رئيس عمادة الاطباء قدم المحاضر وأدار النقاش الذى حضره ما يقرب

من ثمانين طبيبا عربيا كما حضره الاساتذة رفيق بوخريص ومحمد بن صالح ورفعت الدالي والسيدة فتحية مزالي رئيسة الاتحاد النسائي التونسي ورفيق سعيد مدير ديوان السيد وزير التربية القومية والبشير بن سلامة النائب بمجلس الامة ورئيس تحرير مجلة الفكر والمازري شقير الرئيس المدير العام لديوان التنظيم العائلي والعمران البشري .

● أثناء حفل تكريم أقامت شعبة وزارة التربية الدستورية يوم 2 / 10 / 79

تكريما للاستاذ الفاضل محمد مزالي والاستاذ الكريم مصطفى المنيف بمناسبة تعينهما بالديوان السياسي واللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الدستوري جاءت هذه الابيات العاجلة بسرعة انهمار سيل الود الذي لا يعترضه حد ولا سد .

بهذا قدم الشاعر محمد بن صابر لمقطوعته الشعرية هذه :

عشت للفخر وعاش الفخر لك ... ايها النجم الذي زان الفلك
قيم الخير بها الروح ملك ... بسنى « الفكر » نفى كل حلك
فهو في المنهاج دوما قد سلك ... ثقة جلى بها قد جللك
منقذ الشعب بعطف شملك ... بأمانات جسام حملك
وضمير الصدق حقا أهلك ... في سويدا القلب منا أنزلك
جل من بالخير فينا جبلك ... ورعى بالعز تاجا كللك

● امتاز عليك بأحزاني :

هذه أول مجموعة شعرية للشاعر الشاب : يوسف رزوقة وهي باكورة أعماله الادبية التي مازال ينشرها باستمرار في مختلف الصحف والمجلات ، وقد جمع منها ثمانية عشر قصيدا في هذه المجموعة التي صدرت عن « منشورات الأخلاء » التي يشرف عليها الشاعر الصادق شرف (أبو وجدان) الذي قال عنها : « امتاز عليك بأحزاني : نغمة موزونة التوقيع مضمونها ينضج صدقا وايحاء ، شكلها طلائعي بدون انزلاق في الاستلاب المجاني ، أو في الشعر التهريجي الصاخب » . وقد جاءت المجموعة في 52 صفحة من الحجم المتوسط ذات اخراج لا بأس به وطباعة نظيفة نتمنى للشاعر مزيدا من التواصل الادبي وللاخلاء مزيدا من تشجيع الاقلام الشابة خدمة للثقافة في بلادنا .

● ذكرى ميلاد الفكر :

جادت قريحة الشاعر محمد بن صابر بهذه القصيدة بمناسبة دخول مجلة الفكر ، سنتها الخامسة والعشرين :

نجم تلألأ ليلة استقلال ... أسعد بطالعه على الأجيال
فيها استهل وكان مولده بها ... أكرم بمولده وباستهلال
قد جاء سباقا بفتح لاحق ... ومبشرا بتفكك الأغلال
إذ كانت الأحداث تلو حوادث ... وتوالت الأهوال شر توال
فى سورة من ثورة وقدت لظى ... طارت شظاياها بعز نضال
إذ ذاك لاح الفكر واقتحم الوغى ... تحدوه فيه عزيمة الأبطال
حفظ التراث وصانه لما بدا ... متداعيا وعلى شفا اضمحلال
ورمى بذور الوعى فى أرض النهى ... فاذا هى الجنات ذات ظلال
واذا الفضائل أصلها هو ثابت ... والفرع منها فى السما متعال
وقى البلاد شرور طمس ملامح ... لقى العباد سرور كسب مجال
شخصية قومية عربية ... قد أخصبت من مزنه الهطال
بنيت على الاسلام فى صرح علا ... متشامخا متسربلا بجلال
أضحى وبات مربيا ومثقفا ... ومهذبا يدعو لخير خصال
بحر به زخرت فهوم مثل أمـ ... ـواج المحيط وقد رمت بلآلى
تلك السياسة أرسيت أركانها ... بالصدق فى الأفعال والأقوال
لمكارم الأخلاق فيه منبر ... تهدى أشعته لنبل خلال
والضاد فيه حرف نور رصعت ... هالاته من كل در غال
فتق العلوم فما تحمل رتقها ... غزو الرماة بصائبات نبال
منها التليد وطارف ومولد ... وفنون شعر حاز كل جمال
أسرار فلسفة تعاصى حلها ... أبقت به من ربقة الاشكال
ادب تسامى بالمعانى للمعا ... لى نسجه قد فاق فى المنوال
نشر المعارف منذ ربع القرن فى ... هذى الربوع براحة الافضال
ومضى يجاهد فى سبيل العلم لا ... يثنيه عنه تقلب الأحوال
فالعالم العربى أصبح موطنا ... للفكر فهو محقق الآمال
فتقدموا بالشكر بعد تحية ... لمحمد ـ أهل الثناء ـ مزالى

محمد بن صابر